كلمة المسار

إنّ بلادنا التي كانت إيالة عثمانية ثم محمية فرنسية، ثم غدت جمهورية سنة 1957، قد استعادت زمام المبادرة نهائيا سنة 1987 ومارست التحديث المستند إلى القيم الأصيلة غير المنبت عن الرموز الكيانية الكبرى التي تشده إلى التاريخ والماضي، وتؤكد التوق إلى المستقبل. لهذا تفاعلت مع حركات الإصلاح، وعرفت النضال ضد الاستعمار، وأسهمت في الحوار الدائر في المنطقة العربية والمتوسط، تبادلا للخبرات والمحصلات الإجرائية الناتجة عن الانتماء إلى الحضارة الاسلامية، والاحتكاك القوي بأوروبا.

فلقد آن الوقت لتخطي الطريقة التي دعينا بها للتعرف على تاريخنا القديم. ذلك أن أوروبا كانت تسعى إلى خدمة مصالحها، بينما يعنينا أن نركّز في وجوه التفاعل والتواصل المتينة بين حضارات الشرق والغرب. وبين البلدان العربية القادرة على التشبث بالحراك والإضافة.



فليست النهضة العربية، وليس دور تونس في نطاقها، بقصة نجاح أخلاقية نلتقط عناصرها الغابرة بقدر ما يمثل مجال أخذ وردّ بين نماذج النجاح والقعود السائرة قدما نحو مستقبل نرجوه أفضل وأكثر توازنا. فالنخب التونسية ما فتئت تؤكد إيمانها بالحداثة وسعيها إلى تكريس الديمقراطية وربطها بالتنمية، ورغبتها في إعلان تمسكها بحقوق الإنسان وجعلها حجر الزاوية في البناء الشاهق الذي نشيده بالتدرج انطلاقا من دولة القانون والمؤسسات، وتثبيت السيادة الوطنية والإلحاح على قيمة الوطن والمواطنة، فتونس التى أبطلت الرق منذ منتصف القرن التاسع عشر، وانخرطت في سبيل الإنصات إلى ما تهجس به ضمائر مواطنيها تمكنت من استحداث معادلة تحمي للتونسي وجوده، وتدعم سعيه إلى الجمع بين التراث والمستقبل وتمكنه من مزيد الحراك الاجتماعي والثقافي المطلوب.

د. صلاح الدين بوجاه

الحدث الثقافي

20 سنة من الإصلاح والإنجاز في مجالات :
التربية والثقافة والعلوم
برنامج الندوة الدولية

الخميس 18 أكتوبر 2007 :

الجلسة الافتتاحية : الساعة العاشرة صباحا

- كلمة الأستاذ الدكتور المنجي بوسنينة المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- كلمة الأستاذ الدكتور صلاح الدين بوجاه رئيس اتحاد الكتاب التونسيين.
- مداخلة الأستاذ الدكتور عبد الحميد سلامة الوزير المستشار برئاسة الجمهورية التونسية.

(استراحــــة)

الجلسة العلمية الأولى : الساعة الحادية عشرة

المحور الثقافي

رئيس الجلسة : الدكتور حاتم بن عثمان

- مداخلة الأستاذة الدكتورة ألفة يوسف : الخطاب الثقافي للتحول، الفلسفة والأهداف.
- مداخلة الأستاذ المنجي الزيدي : عشرون سنة من الحصاد الثقافي.
- مداخلة الأستاذ أنطونيو دي سيلفا : تونس وتحديات التنمية المستدامة.

الجلسة العلمية الثانية : الساعة الرابعة ظهرا

رئيس الجلسة : الدكتور أمين الزاوي

- مداخلة الدكتور مصطفى القباج : الثقافة في الحفاظ على القيم الحضارية.
- مداخلة الدكتور صلاح الدين بوجاه : دور تونس في النهضة الثقافية العربية.
- مداخلة الأستاذ عمر حفيظ : الثقافة في تونس بين مقتضيات الحداثة وإكراهات العولمة.

الجمعة 19 أكتوبر 2007 :

الجلسة العلمية الثالثة : الساعة التاسعة صباحا

المحور التربوي والعلمي

رئيس الجلسة : الدكتور هشام نشابة

- مداخلة الدكتورة نجوى غريس : المشروع التربوي في برنامج الرئيس بن علي.
- مداخلة الدكتور حاتم بن عثمان : جهود تونس في مجال تعليم الكبار.
- مداخلة الدكتور جبرائيل بشارة : التعليم للجميع : خيار أم ضرورة ؟
- مداخلة الدكتور يحيى الصايدي : المشروع التربوي العربي مضمونه وأهدافه.

الجلسة العلمية الرابعة : الساعة الخامسة ظهرا

رئيس الجلسة : الدكتور محمد حسين فنطر.

- مداخلة الدكتور رشاد عزيز : جهود تونس في مجال البحث العلمي.
- مداخلة الدكتور أحمد نور الدين هلال : جوائز الرئيس زين العابدين بن علي للإبداع العلمي.

السبت 20 أكتوبر 2007 :

الجلسة العلمية الخامسة : الساعة التاسعة صباحا

محور حوار الحضارات

رئيس الجلسة : الدكتور مصطفى القباج

- مداخلة الدكتور هشام نشابة : حوار الحضارات والثقافات : كرسي بن علي نموذجا.
- مداخلة الدكتور محمد حسين فنطر : موقع كرسي بن علي في حوار الأديان والحضارات. شهادة شخصية وميدانية.
- مداخلة الدكتور سنان فلورنسا : الحوار وثقافة السلم في المتوسط.
- مداخلة الدكتور صلاح فضل : الثقافة العربية والثقافات الاسبانية : تواصل وتعايش وتفاهم.

ـ مداخلة الدكتور محمد هشام النعسان : السياحة الثقافية العربية : عامل في التواصل بين الشعوب والأمم.

الجلسة العلمية السادسة : الساعة الخامسة ظهرا

محور المرأة

رئيس الجلسة : الدكتورة ألفة يوسف

ـ مداخلة الأستاذة نوال مصطفى : العلاقات التونسية المصرية في مجال المرأة.

ـ مداخلة الدكتورة محبات أبو عميرة : المشاركة السياسية للمرأة التونسية.

ـ نداخلة االأستاذة أم كلثوم المصطفى : كيفية استفادة المرأة التونسية من تكافؤ الفرص مع الرجال في مجال الإعلام.

الجلسة الختامية :

ـ كلمة الدكتور صلاح الدين بوجاه، رئيس اتحاد الكتاب التونسيين.

ـ كلمة الأستاذ الدكتور محمد العزيز ابن عاشور، وزير الثقافة والمحافظة على التراث.

كلمة الدكتور المنجي بوسنينة

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

يسعدني في افتتاح هذه الندوة الدولية المكرّسة لتكريم انجازات عشرين سنة من التحول المبارك في مجالات التربية والعلوم، أن أرحب بالحضور، باسمي وباسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. واسمحوا لي أن أخص بالترحيب الدكتور محمد العزيز ابن عاشور، وزير الثقافة والمحافظة على التراث، والدكتور صلاح الدين بوجاه، رئيس اتحاد الكتاب التونسيين، شريكنا في عقد هذه الندوة.

كما يسعدني أن أحيي هذه النخبة الطيبة من السياسيين والمثقفين والمفكرين والإعلاميين من تونس والوطن العربي وأوروبا، الذين قبلوا دعوتنا مشكورين، من أجل الحديث عن مختلف أوجه الإنجاز التي حققها تحول السابع من نوفمبر في قطاعات حيوية بمثل أهمية التربية والثقافة والعلوم وحوار الحضارات والنهوض بالمرأة.

وإنه لمن دواعي اعتزازنا في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وتونس تعدّ العدة للاحتفاء بالذكرى العشرين لتحوّ ل السابع من نوفمبر 1987، أن نشارك دولة المقر راعية منظمتنا هذا الاحتفال بالحدث العظيم الذي غيّر وجه تونس وانتقل به من عهد إلى عهد بفضل مبادرة شجاعة من سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، صانع التغيير، والمؤتمن على مسيرته طيلة عشرين سنة مضت، والضامن لاستمراره في قادم الأعوام، بإذن الله.

ولقد أردنا، من خلال هذه الندوة الدولية التي تفتتح اليوم أشغالها، تكريم تلك المرحلة المشرقة من تاريخ تونس الحديث والتنويه بالعمل الدؤوب الذي ما فتىء يقوم به سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، في مثابرة وتواصل، وفي حيوية متجددة، من أجل تحقيق تنمية دائمة وشاملة للشعب التونسي، وذلك من خلال الرفع من مستواه التعليمي والثقافي، والاقتصادي، والاجتماعي، تطلعا إلى نقلة نوعية تضع هذا البلد العزيز على نهج التحديث والتطوير، في تناغم مع ما يشهده العالم حولنا من تحوّلات على كل المستويات.

كما أردنا من هذه الندوة اعترافا بالفضل للبلد الذي يحتضن بكل اريحية مقر منظمتنا، ولرئيسه المبجل الذي ما انفك يحيط المنظمة بسامي رعايته، وجليل عنايته، ويقدم السند لنشاطاتها ومشروعاتها، من منطلق إيمان

راسخ لدى سيادته بأهمية العمل العربي المشترك في مجالات التربية والثقافة والعلوم، وبرسالة المنظمة في تطوير هذه المجالات وجمع شمل العرب حولها.

واسمحوا لي، بهذه المناسبة، أن أتقدم باسمي وباسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بجزيل الشكر وفائق الامتنان إلى سيادة الرئيس زين العابدين بن علي، على هذه الرعاية الموصولة للمنظمة، وعلى هذا السند القوي الذي نجده من لدنه، والذي يحفزنا بحق على مزيد البذل والعطاء دوما إلى الأفضل، متخذين من «التغيير» نموذجا ومثالا.

إننا إذ نشارك تونس أفراحها في هذه المناسبة السعيدة فنحن نثمّن كذلك هذا النموذج الرائد من الإصلاح الذي أبدعته «تونس التغيير» وما حققه من إنجازات على امتداد عشرين سنة ستكون هذه الندوة مجالا للتعريف بها وإبراز خصائصها وإجلاء انعكاسات هذه المسيرة على المجتمع التونسي وعلى مظاهر التنمية الشاملة في البلاد.

ولأني لا أريد أن أستبق ما سيتحدث فيه الأساتذة المحاضرون الأجلاء بشأن هذه الانجازات، وخاصة في مجالات الثقافة والتربية والعلوم وحوار الحضارات والنهوض بالمرأة، فسوف أكتفي بالوقوف عند منهجية حركة الإصلاح التي قادها سيادة الرئيس زين العابدين بن علي منذ السابع من نوفمبر 1987، لاستشفاف بعض من خصائصها وإدراك أسباب نجاحها.

وأول ما يسترعي الانتباه في التمشي الإصلاحي للرئيس بن علي هو تأصّله في تربته التونسية : إنه إصلاح نابع من الذات، ومنطلق من روح وطنية خالصة «فيها من قرطاج عراقة تجربتها وأبعادها المتوسطية»، كما جاء ذلك في خطاب الرئيس زين العابدين بن علي يوم 7 نوفمبر 1997 بمناسبة الذكرى العاشرة للتحول. وقد صدر هذا التوجه عن اقتناع راسخ لدى سيادته «بأن مصير أي شعب لا يتحدد بغير ذكائه، وأن النماذج الجاهزة والحلول المسقطة لا يكتب لها النجاح والدوام لأنها بلا جذور»، كما ورد في الخطاب نفسه.

ونلمس هذه الخصوصية كذلك في اتصال فلسفة التغيير ومنهجيته ومرحليته بواقع المجتمع التونسي، وذلك من خلال قراءة متأنية لهذا الواقع، وإدراك تام لتطلعات المواطن وطموحاته. وليس هذا الأمر بغريب : فقد تصادف تحول السابع من نوفمبر 1987 مع انتظارات شعب بأكمله في فترة عصيبة من حياة تونس، وجاء الإصلاح الذي وضع أسسه الرئيس بن علي متجاوبا مع رغبة شعبية عارمة في التغيير ومستجيبا لحاجة كانت في النفوس لكنها لم تستطع إلى التعبير سبيلا.

وبذلك كان الإصلاح في تونس التغيير نتائج

التقاء إرادة الشعب بإرادة القيادة في تماه تاريخي قل نظيره، وضمن تواصل مستمر إلى اليوم كان منطلقه وعي هذه القيادة بنضج الشعب وجدارته «بحياة سياسية متطورة ومنظمة تعتمد بحق تعددية الأحزاب السياسية والتنظيمات الشعبية»، كما جاء في بيان السابع من نوفمبر. وقد قابل ذلك من ناحية الشعب ثقة مطلقة في كفاءة القيادة ووطنيتها وحرصها على المصلحة العامة وعلى وحدة البلاد واستقرارها.

أيهـا السـيـدات والسـادة

في هذه التربة الأصيلة المتأصلة، وفي هذا المناخ من الثقة المتبادلة، نما التمشي الإصلاحي التونسي وتطور خلال عشرين سنة وكانت من سماته الكبرى نظرة شمولية لموضوع الإصلاح، ومنهجية مرحلية متأنية في تطبيقه، واندراج ذكي في القيم الكونية المؤسسة لأي إصلاح يهدف إلى تنمية المجتمع والنهوض بالإنسان.

أمّا شمولية النظرة فكان عنوانها الأبرز عدم اقتصار المنهج الإصلاحي للرئيس بن علي على البعد السياسي، بل كان متكامل الأبعاد، متلازم المقومات، جامعا بين السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة. فمع تكريس الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان في الحياة السياسية للبلاد، ومع بناء قواعد المجتمع المدني، عني مشروع السابع من نوفمبر بالإصلاح الهيكلي للاقتصاد التونسي وأعطى البعد الاجتماعي كل العناية الجديرة به، من خلال مزيد النهوض بالمرأة والأسرة والشباب، وتعزيز المد التضامني بين مختلف فئات المجتمع، وتحسين نسب التغطية الاجتماعية، ورعاية الفئات المحرومة، وإصلاح النظام التربوي، إلى غير ذلك من الإجراءات التي تكفل إقامة مجتمع متوازن متضامن. كما كان للثقافة والإعلام حظهما من الإصلاح حتى ينسجما ضمن منظومة التنمية الشاملة ويؤديا باقتدار الأدوار المناطة بهما في تكامل مع بقية القطاعات.

وأما السمة الثانية لتغيير السابع من نوفمبر فهي أن الإصلاح الشامل تم بشكل تدريجي تصاعدي، وخاصة في الجانب السياسي منه، حيث كان التقدم على درب التعددية بخطى رصينة ثابتة تجنب أي انتكاسة تعود بالمشروع الإصلاحي إلى الوراء، وبمنهجية بنائية تضيف كل يوم لبنة جديدة إلى صرح الديمقراطية والتعددية، دون تعريضه إلى مخاطر الصراع والتناحر... وكان ذلك جانب «الثورة الهادئة» في تحول السابع من نوفمبر.

وما كان للمشروع الإصلاحي في عهد التغيير أن يؤتي أكله لو لم يقم على قاعدة متينة من القيم الاصيلة التي تجتمع حولها كل فئات الشعب التونسي، وفي مقدمتها قيم الوفاق والتضامن والانتماء إلى الوطن، وهي قيم

تجمع التونسيين حول قواسم مشتركة لا محيد عنها وتمثل اللحمة التي تربط بين أبناء الوطن الواحد مهما اختلفت مشاربهم السياسية وانتماءاتهم الاجتماعية.

وبالتكامل مع هذه القيم الأصيلة في مجتمعنا لم يرفض مشروع الإصلاح التونسي الاندراج في منظومة القيم الكونية المؤسسة لمفاهيم الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان، لكنه ترك لنفسه هامش المحافظة على خصوصية البلد وثوابته العقدية في التعامل مع هذه القيم. وكان ذلك ثالث السمات المميزة لنموذج الاصلاح التونسي في عهد التغيير.

لكن لابد أن يضاف إلى هذا كله تلك القدرة الفائقة على استشراف المستقبل واستباق الأحداث، التي ميزت المسيرة الإصلاحية في عهد التغيير. فتونس لم تباغتها التحولات التي شهدها العالم في مطلع التسعينات بل كانت سباقة في اختياراتها، سواء على مستوى إضفاء الديمقراطية والتعددية على الحياة السياسية أو بالنسبة إلى إعادة هيكلة الاقتصاد أو مراجعة مناهج التعليم أو تبني منظومة حقوق الإنسان العالمية، وهي اليوم سائرة على نفس النهج الاستشرفي بما يحقق لمسيرة الإصلاح تطورا لا يتوقف، لأن من طبيعة الإصلاح الاستمرارية، وإذا توقف الإصلاح توقف نبض الحياة في أي مجتمع.

وعلى نفس هذه النظرة الاستشرافية انبنت مواقف عهد التغيير من القضايا الدولية. فقد كان للرئيس بن علي إزاء الأحداث الكبرى والظواهر الكونية المختلفة التي تخترق عصرنا، كالعولمة، والتواصل بين الحضارات، والارهاب، وإقامة مجتمع المعرفة، تحليل متميّز دائما بالاتزان وبعد النظر وبتغليب الحلول السلمية والاحتكام إلى الشرعية الدولية دون الكيل بمكيالين، وإلى غير ذلك من المواقف التي تنمّ عن وسطية واعتدال هما من أبرز ما يميز سياسة تونس الخارجية منذ السابع من نوفمبر 1987. وتبعا لذلك كان الرئيس بن علي سندا قويا للحوار بين الحضارات والأديان واعتبره الحل الأسلم لكل مظاهر سوء الفهم المتبادل بين البشر، والأداة الفضلى لبلوغ العيش المشترك في كنف الأمن والسلام.

إن ما يبقى راسخا في الذهن بعد عشرين سنة من التحول المبارك هو تلك الصورة المشرقة لتونس في الداخل والخارج، والتي جسمها مشروع مجتمعي متكامل الأركان وحكم رشيد راوح بين التغيير السياسي، والإصلاح الاقتصادي، والرقي الاجتماعي والثقافي، في تناغم بديع وفر لتونس كل مقومات الاستقرار والتقدم، ومكن المواطن من العيش الكريم في ظل سلم اجتماعية مستمرة وتكافل مجتمعي حقيقي.

إن هذه الصورة المشرقة لتونس يقف وراءها الرجل الذي صنع التغيير وأرسى دعائمه بمنهجية رائدة وفكر نيّر. فقد كان الرئيس زين

العابدين بن علي، ولا يزال، محرك التحول والقائم على استمراره وتجدده، متوخيا في ذلك تمشيا حكيما يعتبر أن التغيير جهد يومي لا يتوقف وأن الإنسان يبقى الهدف الأسمى لأي إصلاح سياسي أو أي عمل تنموي.

واسمحوا لي، في ختام هذه الكلمة التي أردت من خلالها التمهيد لمحاور ندوتنا، أن أتقدم، باسمي وباسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إلى سيادة الرئيس زين العابدين بن علي بأحر التهاني وأصدق الأماني بمناسبة الذكرى العشرين للتحوّل، راجيا لسيادته استمرار التوفيق والنجاح في قيادة تونس نحو ما يتطلع اليه شعبها من رقي وازدهار وعزة ورفاهة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الدكتور صلاح الدين بوجاه

رئيس اتحاد الكتاب التونسيين

إنه لمن دواعي الشرف أن نسهم معكم، باسم جميع الكتاب التونسيين في الإعلان عن افتتاح هذه الندوة العربية التي تمثل ثمرة تعاون بناء بين اتحادنا والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والتي تقيم الدليل الساطع على أن النوايا الصادقة يمكن أن تفضي إلى غنم واسع يضع الجهود العربية ضمن السياق السليم الذي نرجوه لها.

لهذا يحلو لي باسمكم جميعا أن أرحب باساتذتنا العرب والتونسيين، والأجانب القادمين من أوروبا بالمساهمة في الاحتفال بمرور عشرين سنة على الحدث الذي غيّر وجه تونس، ومثل بحق ثورة عقلانية هادئة تتسم بالشمول في جمعها بين الديمقراطية والتنمية، وأخذها بقيم الحرية والتضامن والعدالة، وإعلائها من شأن حقوق الإنسان، ورفعها من شأن حقوق المرأة والشباب والمثقفين.

ويعنينا أن نتريث خاصة لدى التربية والثقافة والعلوم التي تمثل في رأينا خلاصة الحراك السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي الذي بدل الحال وغيّره خلال العقدين الماضيين وجعل المجتمع التونسي يسعى في سبيل امتلاك المعرفة، والتحكم في التكنولوجيا، والعمل على استشراف المستقبل.

لهذا يشرفنا أن نرحب بكم جميعا، وخاصة بضيوفنا من البلاد العربية وأوروبا في بلد الاعتدال والوسطية والحوار، بلد التوازن والتضامن والحرية... مؤكدين أن سبيلنا هي سبيلكم ضمن ضرورة الإصلاح، ومقتضيات الرقي وأسباب الرفاه التي يتوق اليها شبابنا، ويضمنها - بكل سخاء - قائد مسيرتنا، سيادة الرئيس زين العابدين بن علي.

فمرحبا بكم جميعا باحثين ومبدعين، ومثقفين يرون أنهم بمشاركتهم في هذه الندوة يشاركون في الاحتفاء بالتغيير.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

عشرون عاما من ثقافة التغيير

بقلم : د. المنجي الزيدي
جامعي ومدير رئيس تحرير
جريدة «الحرية»

لا يختلف اثنان في أنّ مشروع التحول في تونس هو مشروع حضاري شامل تحتل فيه الثقافة مكانة بارزة وتقوم فيه النخب المثقفة والمبدعون بدور جوهري في حياة المجتمع.

ويعدّ بيان السابع من نوفمبر القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الاختيارات والتوجهات التي تبنّتها القوى الوطنية الحيّة وأجمعت عليها في وفاق وطني وثيق.

ومن أبرز هذه الاختيارات السعي الى بناء ثقافة وطنية ترسّخ الانتماء الحضاري وتمهّد المسالك الآمنة لمواجهة تحديات العصر وكسب رهاناته. ومن هنا كان أبرز شعار تبنته الدولة والنّخب في السنوات الأولى من التحولّ : «لا لتهميش الثقافة ولا لثقافة التهميش»، وهو مبدأ «ثوري» لأنّه قطع مع عهود كانت فيها الثقافة ترفا اجتماعيا أو فضاء للتعبئة الحزبية أو وسيلة لتلهية الرأي العام عن قضايا البلاد الجوهرية... لقد طرح العهد الجديد منذ البداية بديلا ثقافيا حقيقيا، أعاد للثقافة أهميتها المركزية كسند للمشروع المجتمعي وكمعين يغذّي التنمية المتكاملة والمستدامة ويضمن التماسك الاجتماعي ويحفز الطاقات ويشجعها على التألّق والابداع، بما يساعد على إشعاع تونس في محيطها.

ولئن تشهد التقارير الرسمية التونسية والأجنبية، بما تتضمنّه من احصائيات ومؤشرات، على نجاح الاصلاحات العميقة التي شهدها القطاع الثقافي في تونس، فإنّه يمكن أن نركّز في ورقتنا على المبادىء الاساسية التي غيّرت المشهد الثقافي وارتقت به الى مرتبة متقدمة وذلك على النحو التالي :

1) مشهد ثقافي حرّ وتعدّدي :

فتح الرئيس زين العابدين بن علي فجر السابع من نوفمبر 1987 صفحة جديدة في تاريخ تونس، قطعت مع مرحلة طويلة سادت فيها أحادية الفكر وضربت القيود حول التعبير وانحسرت فيها الحريات في مجالات الابداع والتفكير والمشاركة في الشأن الثقافي، وتعزّز فيها الطابع الرسمي للثقافة ممّا أدّى الى انغلاق تام للمشهد الثقافي وانسحاب جماعي للمبدعين والمثقفين عن الساحة.

ولما كانت الاصلاحات التي جاء بها التغيير شاملة ومتكاملة، فقد رافقت المصالحة السياسية والاجتماعية مصالحة ثقافية وحضارية. تمثلت بالخصوص في فكّ أسر الفكر وكسر قيود الابداع وفسح المجال أمام التعبير الحرّ المسؤول الذي يحترم الثوابت الحضارية التي أجمعت عليها المجموعة الوطنية ويعلي المصلحة الوطنية ويحافظ على مكاسب البلاد ويصون عزّتها واستقلالية ارادتها وحرمتها.

ومن أبرز دلائل هذا التمشي منع مصادرة الكتب وتنظيم آلية الايداع القانوني والغاء التأشيرة على النصوص المسرحية، وعدم اعتماد أيّ نوع من التأشيرات على سيناريوهات الافلام التي تتقدم للحصول على دعم الدولة.

وتزخر الابداعات التونسية في مجالات المسرح والسينما والادب بنماذج تعبيرية حرّة لا نجد مثيلا لها في عديد البلدان الأخرى.

لقد غدا المشهد الثقافي في تونس، مشهدا تعدّديا يشمل اتجاهات فنية متنوعة، ومتفتحا على تيارات وموجات جديدة ومستحدثة، وذلك ما جعل الثقافة التونسية تتميّز بجرأتها وتحتلّ مواقع طلائعية ونموذجية في محيطها العربي والاقليمي.

2) تعزيز الحق في الثقافة :

منظومة حقوق الإنسان في فكر الرئيس زين العابدين بن علي، منظومة متكاملة. تتكامل فيها الحقوق السياسية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية. فلا معنى لحقوق الانسان في ظل واقع يتسم بالتخلف والجهل والتراجع الحضاري. لذلك كان الحق في الثقافة أولوية مطلقة في السياسة الثقافية منذ تحول 7 نوفمبر 1987، فاتسعت شبكة الفضاءات الثقافية على كامل تراب الجمهورية من مكتبات عمومية ودور للثقافة، وتنوعت الأنشطة والتظاهرات من مهرجانات وأيام ثقافية لتشمل كل الفئات والشرائح وتصل إلى الجميع. وما انفكت آليات اللامركزية الثقافية تتعزز وذلك لضمان مشاركة واسعة في تسيير الشأن الثقافي وإثراء مضامينه. وتساهم مكونات المجتمع المدني مساهمة نشيطة في هذا الاتجاه في إطار شراكة فاعلة مع هياكل الدولة.

3) الدولة والثقافة : من الوصاية إلى الرعاية :

أدرك الرئيس زين العابدين بن علي منذ فجر التحول أن احتواء الدولة للثقافة لا يمكن أن يؤدي إلا إلى انغلاق المشهد الثقافي وانحسار هامش المبادرة والإبداع والتجديد. فاعلن في أكثر من مناسبة أن الثقافة شأن جماعي، من قطاع عمومي وقطاع خاص ومجتمع مدني.

ومن هذه الوجهة فإن الدولة لا يمكن أن تصنع الثقافة بل هي تشجع على ذلك وتدعم المبادرة

التي تأتي من المبدعين أفرادا وجماعات. وقد حرص الرئيس زين العابدين بن علي على توفير الاعتمادات المالية اللازمة للنهوض بالميدان الثقافي، فبلغت ميزانية وزارة الثقافة 1% من ميزانية الدولة وسوف تبلغ تبلغ 1.5% في سنة 2009 وهي نسبة نعد مطمحا في عديد البلدان المتقدمة. كما شهدت الفضاءات الثقافية تطورا كبيرا وذلك بتعزيز المؤسسات الثقافية المرجعية الموجودة كبيت الحكمة والمعهد الوطني للتراث والمكتبة الوطنية... وسوف تتدعم بالمشروع التاريخي العظيم المتمثل في احداث مدينة الثقافة وهي صرح حضاري نموذجي سيفتح أبوابه سنة 2009. وتتوخّى تونس سياسة نموذجية ومتميزة في مجال دعم الانتاج الثقافي، فهي تخصص له اعتمادات مالية كبيرة تساعد على انجاز المشاريع الفنية المختلفة في مجالات المسرح والسينما والكتاب والفنون التشكيلية في مرحلة أولى ثم تسهّل ترويجه ونشره في الداخل وفي الخارج، وما يميّز هذا الدعم هوأنه غير مشروط الاّ بجودة المضمون وثرائه وتنوعّه.

4) المثقفون والمبدعون في الطليعة:

اعتبر العهد الجديد المثقفين والمبدعين ضمير الوطن الحيّ، وصوته الحرّ المعبر عن مشاغله وطموحاته. فأتمنهم على رسالة التغيير وذلك بتشريكهم في الشأن الوطني والاستنارة بافكارهم ومعارفهم والاستئناس برؤاهم. كما عوّل عليهم لنشر القيم السامية في المجتمع كالحثّ على العمل والاجتهاد والبذل لما فيه خير البلاد ومناعتها وضمان مستقبل أجيالها. وقد وفّرت الدولة آليات كثيرة لدعمهم وحماية حقوقهم المادية والمعنوية، وكان صندوق التغطية الاجتماعية والمبدعين مبادرة تاريخية تحفظ كرامتهم وتساعد ذوي الحاجة منهم على تجاوز ما قد يمرون به من ظروف صعبة. ويعتبر اليوم الوطني للثقافة مناسبة ذات دلالات حضارية، يكرّم فيها رئيس الدولة رجالات الثقافة وأهلها. ويعلن عن اجراءات جديدة من شأنها دعم القطاع ومزيد الارتقاء به، كما دأبت الدولة على تنظيم الاستشارات الموسعة في الاوساط الثقافية، أبرزها الاستشارة الوطنية : تونس في عيون مثقفيها وما تلاها من استشارات قطاعية حول المسرح والموسيقى...

5) الثقافة والتنمية جدلية وتفاعل :

التنمية في فكر الرئيس بن علي، هي منهج يسعى الى المحافظة على تكامل وتوازي المسارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكذلك تطوّر الذهنيات حتى تكون بلادنا في مأمن من مساوىء التفاوت المجحف بين هذه المسارات والذي يتحوّل الى مصدر لفقدان التوازن التنموي

والاجتماعي وبروز مخاطر التهميش ومعوقات التنمية المستديمة. لذلك كانت تونس سباقة «الى مقاربة توازي بين الاصلاحات الاقتصادية من ناحية والاصلاحات الاجتماعية من ناحية أخرى وتتكامل مع التقدم بالديمقراطية والتنمية الثقافية بنفس الوتيرة».

على هذا الأساس انخرطت تونس منذ 1988 في «العقد العالمي للتنمية الثقافية (1988 - 1997)» الذي أقرته منظمة اليونسكو تأكيدا على أهمية الاعتراف بالبعد الثقافي للتنمية والذاتيات الثقافية وتوطيدها وتوسيع نطاق المشاركة في الحياة الثقافية وتعزيز التعاون الثقافي الدولي، كما لعبت دورا هاما في تكريس هذه الرؤية في السياسات الثقافية العربية التي تمّت بلورة توجهاتها في منظمة «الألكسو» سواء في «الخطة الشاملة للثقافة العربية» أو مؤتمر تونس لوزراء الثقافة العرب 1996 الذي خصص لموضوع الثقافة والتنمية. حين تمّ التأكيد على «أنّه لا يجوز النظر الى التنمية كبعد كمّي دون اعتبار لبعدها المتمثل في تلبية متطلبات الانسان الروحية والثقافية بجانب حاجاته المادية».

6) البعد الاقتصادي للثقافة :

أبرز الرئيس زين العابدين بن علي الارتباط الوثيق الذي أصبح يربط الثقافة بالاقتصاد في عالم اليوم وذلك عبر تحديده لمفهوم جديد أصبح متداولا على الساحة الدولية وهو مفهوم «الصناعات الثقافية»، ويقول في هذا الصدد : «إنّ الثقافة في هذا العصر صناعة بالمفهوم الاقتصادي للكلمة، وهي عامل من عوامل التنمية، وكلما ازدادت مكانة قطاع الخدمات في التبادل التجاري العالمي شأنا، وشبكات الاتصال انتشارا وتعقيدا الاّ وازدادت أهمية الثقافة، لا فقط من حيث قيمة السلع والمنتوجات الثقافية في كل ذلك، بل لأنّ الصورة والصوت والكلمة التي يقوم عليها الاتصال والتبادل من خلال تلك الشبكات، في حاجة الى مراجع ومصادر وما تكون تلك المراجع والمصادر الاّ في الثقافات الحاضرة والفاعلة»...

ومع أنّ السيادة هنا تبدو للصورة فإن الصناعات الثقافية في بلادنا لا تغفل مجالات الانتاج الثقافي التقليدية وفي مقدمتها الكتاب والنشر الورقي الى جانب استغلال التراث من خلال السياحة الثقافية. فالتراث في المقاربة التونسية مجرّد شواهد ومعالم وآثار تتعامل معها تعاملا حنينيّا أو متحفيّا جامدا، بقدر ما هي ثروة متجدّدة حيّة ترتبط عضويا بحركية المجتمع وقد قال في شأنه سيادة الرئيس زين العابدين بن علي : «كما اتخذنا العديد من الاجراءات التي أعطت دفعا كبيرا لصيانة التراث وتوظيفه واستغلاله، مما مكّن من إدماج التراث في واقع الحياة اليومية للمواطن

وخلق روابط عضوية بينه وبين موروثه الحضاري، إيمانا بأن التمسك الواعي بالجذور يمهّد المسالك الآمنة لإثراء الحاضر والتأسيس للمستقبل».

7) ثقافة تواكب العولمة :

ولمّا كانت للعولمة انعكاسات سلبية تجسمت في ما يسود العالم اليوم من توترات ونزاعات عمّقته الاحداث الأليمة لـ 11 سبتمبر 2001 وما كان لها من وقع عميق في الضمير العالمي وتأثير في طبيعة العلاقات الدولية، واصلت تونس الاضطلاع بدورها كقطب حضاري يرسّخ قيمة التسامح ويعزّز حوار الحضارات الذي اعتبره الرئيس بن علي أفضل السبل للقضاء على بؤر التوتّر والصراع، وضرورة حتمية لترشيد مسار العولمة ولا سيما في بعديها الاقتصادي والاجتماعي، وقد قال سيادته في هذا الصدد : «إنّ الكونية لا تتعارض مع خصوصيات الشعوب وتميّز رصيدها الثقافي وخلاصة تجاربها التاريخية، فنحن نرى أن البعد الكوني قائم في كل فرد وهو من جوهر السلوك الإنساني السليم». وتجسيما لهذا التمشي تمّ إدراج «مركز قرطاج لحوار الحضارات» في «شبكة الشبكات المتوسطية» : «المؤسسة الاوروبية المتوسطية لحوار الثقافات». هذا فضل عن التظاهرات الهامة التي نظمت في الولايات المتحدة أو في عديد البلدان الاوروبية والتي كانت مناسبات للتألقّ والاشعاع. كل هذا الى جانب مصادقة تونس على الاتفاقات الدولية لحماية الملكية الفكرية وصيانة التنوّع الثقافي والتراث اللامادي.

1957 ـ 1987 ـ 2007

سنوات راسخة في الذهن

بقلم : د. صلاح الدين بوجاه

إن الاحتفاء بالذكرى الخمسين لعيد الجمهورية التونسية لا يعدو أن يكون استحضارا لمنظومة قيم متولدة عن حدثين مهمين في تاريخ تونس المعاصرة، حدث إلغاء الملكية، ثم حدث تغيير السابع من نوفمبر. لهذا فمن اليسير ان نعلم ان ذكرى الجمهورية تمثل ثورة قيم هادئة موصولة بالتحول الكبير الذي افتتحه الرئيس زين العابدين بن علي سنة 1987. وبناء على ذلك فان سنوات 1957 و1987 و2007 تبقى راسخة في ذهن المطلعين على تاريخ هذه البلاد باعتبار ان هذه السنوات ترمز الى الحركية، واسترجاع السيادة الوطنية، وتثبيت مبدإ الوسطية والاعتدال، ونشر قيم الديمقراطية، واحترام حقوق الانسان، وتكريس مبادىء حرية المرأة، وربطها بحرية الاسرة وتوازنها، والإقرار بضرورة نشر التعليم على أوسع نطاق، والحدّ من النسل، والتوق إلى مجتمع المعرفة، وتثبيت قيم التقدم والرقي والحداثة.

ولا نشك في ان هذه المنظومة من المبادىء لم تنبثق دفعة واحدة من رحم التاريخ، وإنما نبعت بالتدرّج منذ انتشار الحركات الاصلاحية، في منتصف القرن التاسع عشر، حتى ظهور الصحف والمجلات في تونس مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وانبثاق حركة النضال الوطني مع عبد العزيز الثعالبي والحبيب بورقيبة وعلي البلهوان.

بيد ان تكريس قيم الجمهورية التي بدت منسجمة مع أصولها القريبة والبعيدة، لم تتأكد إلا بداية من سنة 1987. فلقد أثبتت النخب التونسية في عهد السابع من نوفمبر ايمانها بالحداثة، وسعيها إلى تكريس الديمقراطية المنسجمة مع روح الاعتدال والوسطية، وأعلت من شأن حقوق الانسان، وجعلت منها حجر الزاوية، في البناء الشاهق الذي تشيده بالتدرّج انطلاقا من دعم دولة القانون والمؤسسات، وتثبيت السيادة الوطنية والإلحاح على قيمة الوطن والمواطنة، وهي بلا ريب قطب الرحى في الجدل النظري والاجرائي الذي انتشر بين الفئات المثقفة، وشاع بين الجميع على اختلاف الجهات والأجيال والفئات.

فتونس التي أبطلت الرق منذ منتصف القرن

التاسع عشر والتي ناضلت في سبيل مقاومة الحماية الفرنسية من دون رفض للقيم الحضارية الحديثة، تمكنت من استحداث معادلة متوازنة تحمي للتونسي وجوده الحديث وتسمح له بان يحتفظ بهويته، وتمكنه من الاندراج الذكي في قلب الحداثة والحراك الاجتماعي والحضاري المعاصر.

فتونس ليست من الشرق، وتونس ليست من الغرب على حد ما أثبته طه حسين بالنسبة الى مصر، فهي نسيج وحدها في الجمع بين عناصر الشرق والغرب في تركيبة فريدة هي تركيبة المواطن التونسي، الذي أسهم في بناء الحضارة القديمة في صلب المتوسط ويسهم اليوم من دون عقد وبكل اقتدار في بلورة النجاحات الجديدة للحضارة الحديثة والمعاصرة.

بهذا الإدراك المتحرك لقيم الجمهورية نفهم الدور الأساسي الذي لعبه تحول 7 نوفمبر 1987 في إنقاذ الجمهورية وإرساء قيمها، والسير بها نحو بداية الألفية الثالثة التي نرجو جميعا أن تكون طورا متقدما جدا من أطوار المشاركة واستحثاث الصعود نحو منزلة أفضل بالنسبة الى بلد لا تفصله عن التقدم إلا جهود يسيرة ليست بالمستحيلة.

إن التلازم بين قيم الجمهورية ومبادىء الثورة الهادئة التي تولدت في نهاية الثمانينات، قد مكن هذه البلاد الصغيرة من المحافظة على توازنها الكبير الذي يخدم دورها الأكبر في صلب المتوسط مستقبلا.

فالخيارات الوطنية والعالمية النابعة من الجمهورية والتغيير والحداثة قد رسخت لدى جميع التونسيين فكرة المستقبل بما يتماشى مع مفاهيم الشراكة الذكية ذات الأبعاد الحضارية الشاملة مع غرب منفتح متوازن يعتبر الضفة الجنوبية جزءا أصيلا من الكيان المستقبلي الجامع بين دول ذات تاريخ واحد وثقافات متقاربة ذات مستقبل واحد.

إن الجمع بين قيم الجمهورية وبيان الـ 7 من نوفمبر 1987، مع ما تعنيه من مفاهيم الحداثة والسيادة الوطنية والإيمان بالانسان لا يجعل من بلدان الضفة الجنوبية حدودا تحمي أوروبا من الهجمات غير المنظمة وانما يهدف الى جعل هذه البلدان مشاركة في بناء الحضارة مسهمة في الانتفاع بثمارها، عاملة في إرساء توازنها.

ويعنينا أن نؤكد التلازم بين احداث سنوات 1957 و1987 و2007 والمستقبل، ان جمهورية الغد بهذا المعنى، والتي يسهم في ابتداعها كل أبناء تونس هي القادرة على استدراج كل هذه المفاهيم حتى تمكنها من أن تكون ذات أثر واضح في بنية التفكير، والخيارات السياسية والقيم الثقافية. إذ لا ينبغي أن تسهو عن تلك

الفكرة البسيطة القاضية بان الحدث الحضاري حدث شامل أو لا يكون.

ولا نشك في أن معنى الشمول هو الذي يسمح لنا برؤية أسس الأحداث والآليات الخلفية المؤثرة فيها، في تشابكها الواقعي لا يرفض المخيال وانما يجعل منه محركا رئيسا من محركات صنع الغد، وهل الثقافة عموما بجميع عناصرها إلا من قبيل هذا المخيال ؟

إيقاع الجمهورية... إيقاع المستقبل

إذا سلمنا بأن ايقاع الجمهورية هو إيقاع الحداثة والتنوير والديمقراطية والمعرفة وحقوق الإنسان والحكم الرشيد وقفنا بداهة على حقيقة بسيطة واضحة ثابتة، وهي أن هذا الإيقاع يرمز إلى المستقبل ويستحضره بكلّ قوة.

وإننا لنعتبر هذه الفكرة سمة أساسية تخصّ الحياة السياسية في بلادنا، وتكسبها عنفوانها، وتحيطها بجميع إمكانات تأثيرها في الطور القادم، خاصة أن الجدل السائد منذ عشرين سنة جدل يولي المصالحة بين الماضي والحاضر والمستقبل - قيمة استثنائية.

لهذا فإنّ تأمّل ذكرى الجمهورية يوقفنا على عدد من الملاحظات الأولية :

1) التحولّ نحو الجمهورية سنة 1957 تحولّ كيانيّ عميق أسهم في تغيير بنية المجتمع التونسي،وبدّل العلاقات بين الناس، أفرادا وجماعات، وغرس بذور الحداثة المتوازنة.

2) تغيير السابع من نوفمبر 1987 أنقذ الجمهورية من «خيبات الطريق» وأعاد اليها ألقها، وغذّاها بعناصر جديدة ملائمة للمرحلة الراهنة.

3) قيم الجمهورية (ومنها الاعتدال / والوسطية / والحداثة / والإعلاء من شأن حقوق الإنسان / ودعم ظاهرة حرية المرأة / ونشر التعليم / والتوازن الديمغرافي / والانفتاح على الآخر / وغيرها) قيم متحولـة، تمتاز بحراك ايجابي، وهي قادرة على تلوين المستقبل بألوان التقدم والرقي والانسجام مع العصر.

4) انتشار «ثقافة الجمهورية» يعدّ من أهم الضمانات لتواصل دعمنا لفكرة الجمهورية، تصورًا وإنجازا، وتغذيتها وخدمتها في الحاضر والمستقبل.

ولأن إيقاع الجمهورية هو إيقاع المستقبل فإن نظامنا قد آمن بأن الأمر أعمق من ظاهرة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية. وانتبه إلى أنها ظاهرة حضارية ثقافية شاملة، تصل أبناء هذا الشعب بفلسفات الأنوار في أورويا، وبالفكر الهيجلي، وايجابيات التراث الاشتراكي وعصر الحداثة عموما... دون أن تقطع الجذور التي تشدّه إلى حركات الإصلاح في تونس، ونضال المرأة العربية في سبيل

التحرّر، وظاهرة ابن خلدون الفقيه عالم الاجتماع المقبل على ممارسة العمل السياسي، ومحمّل المكتبة العربية الاسلامية الواسعة الغنية بأمجادها الفكرية والاجرائية.

لهذا كلّه نصرّ على أن إيقاع الجمهورية لا يعدو أن يكون إيقاع المستقبل، المحافظ على ما غنمته بلادنا خلال قرون من الاحتكاك بالشعوب الراقية، والاسهام الذكي في الحراك العام الذي يأخذ بالناس والأشياء، ويؤمن «بأن الإنسان لا ينزل إلى نفس الماء مرّتين».

إن الإيمان بالحركية، ونبذ الجمود، وهما من بين ما تعلمنا من العهد الجديد الذي استهل سنة 1987، قد مكّنا أجيالا متعاقبة من الشعب التونسي من بلورة «ثقافة الجمهورية» تتجاوز الجوانب التأسيسية والتشريعية الصرف، وتتجاوز التاريخ أيضا، لتضرب بسهم مكين في «الرؤية العميقة» المتحكمة في الكيفية التي يمارس بها التونسي وجوده الحديث.

وبما أن الأمر من قبيل الثقافة الشائعة في مجتمعنا، والتي نأمل أن تزداد شيوعا وانتشارا فإن هياكل المجتمع المدني، من أحزاب وجمعيات ومنظمات حكومية وغير حكومية، تدعى إلى مواصلة الجهد المبذول في سبيل تبسيط هذه القيم، ونشرها على أوسع نطاق، والتشجيع على الأخذ بها أخذ تطبيق واجراء وتنفيذ.

وفي اعتقادي أن هذا يمكن أن يزداد حضورا وثباتا في المستقبل من خلال مصطلحين بارزين، وهما مصطلحا : الحداثة والحكم الرشيد.

إن بلادنا باعلان الجمهورية قد أعلنت البت النهائي في مسألة الجدل القائم في صلب الحركات الاصلاحية المتعاقبة حول نوع النظام، ونوعية المجتمع، وضروب المعارف الشائعة فيه ولا شك أنها بالانخراط في طور تغيير السابع من نوفمبر تعلن مجددا أنها مؤمنة بخيار «الحكم الرشيد» مزروعة في المستقبل آخذة بقيمه سائرة ضمن إيقاعه.

بقي أن نعرّج على فكرة حافظة لهذا النسق العام، مسايرة له حتى لكأنها جزء منه، بل إنها لكذلك فعلا لأنها لدى غيرنا من الأمم السائرة ضمن إيقاع الحداثة قد انبثقت من رحم «ثقافة الجمهورية» مع ما يحفّ بها من جديد.

إنني أشير إلى ضرب من نقد الذات الذي يؤثر بعضنا تسليطه على نطبيقنا لجملة الأفكار التي تعرضت اليها هذه الورقة.

وفي يقيني وإنّ هذا النقد ينبىء بحراك المجتمع ويوحي بكمون الرغبة في التحوّل والتبدّل في صلب هذا المجتمع، وهي رغبة ضامنة للتشبث بالجمهورية والمستقبل...

إسهام الثقافة في الحفاظ على القيم الحضارية والإنسانية

بقلم : د. محمد مصطفى القبّاج
مقرر أكاديمية المملكة المغربية

ليس من الغريب في شيء أن تبادر تونس الى تسجيل الاحتفال بالذكرى العشرين للتحول التاريخي الذي تحقق في السابع من نوفمبر 1987 باحتفال مواز وهذه المرة بالثقافة اعترافا بدورها الحاسم في مسار التنمية الشاملة والمستديمة، وخاصة دورها في إبداع القيم والحفاظ عليها، وهو موضوع يدخل في صميم فرع معرفي جديد يطلق عليه أهل الاختصاص «الدراسات الثقافية». ومن المؤكد أن التاريخ المعاصر لتونس يتميز سواء بفضل الثورة البورقيبية أو بفضل التحول التاريخي للسابع من نوفمبر ويدل دلالة قطعية على أن الدرجة التي بلغتها متانة النسيج الاجتماعي والاقتصادي تعود في المرتبة الأولى للتركيز على الإرادة السياسية الصارمة التي تبوّىء الثقافة مكانة مركزية ضمن مشاغل الدولة، وذلك بالمفهوم الواسع لكلمة «ثقافة» باعتبارها ظاهرة تاريخية، وإن كانت دلالتها متعددة. فزميلنا محمد عابد الجابري يرى أنها من الشيوع في مختلف الحقول المعرفية إلى درجة أصبح لها في كل حقل معنى خاصا»(1).

ففي الحقل السوسيولوجي تعني الثقافة مجموع المظاهر الفكرية الخاصة بحضارة مّا أو أمّة من الأمم، ومن ثمة فهي الأشكال المكتسبة من المواقف الاجتماعية والعادات.

وفي الحقل السيكولوجي الثقافة هي حصيلة صياغة عرفانية (cognitive) عليا متأتية عن نشاط عصبي دماغي راكم كمية من الأحاسيس والتجارب والمعلومات تتم ترجمتها إلى مهارات وكفاءات وقدرات نظرية وعملية تميز كل فرد بأسلوب خاص يطبع فكره وسلوكه.

أما في الحقل الإنثروبولوجي الذي تتبناه منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم فالثقافة حسب (إدوار تايلور) « كل مركّب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والأعراف، وغير ذلك ممّا يكتسبه الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع»(2). وقد أشار تصريح مكسيكو لسنة 1982 إلى نفس المعنى، إذ جاء فيه أن الثقافة هي «مجموعة الملامح المميّزة روحيا وماديا وفكريا ووجدانيا لمجتمع أو فريق من الأفراد، وتشمل فيما عدا الفنون والاداب أنماط الحياة

والحقوق الأساسية للكائن البشري وأنساق القيم والتقاليد والمعتقدات»(3).

اعتمادا على هذا المنظور الإنثروبولوجي فإن الثقافة مكتسبة وليست موهوبة تتوارث عبر الأجيال، وأنها تشكل نسقا متناغما، وأنها متوزعة بفضل خاصية انتشارية عبر العملية التنشيئية. وقد وفق (فدريكو مايور) في صياغة هذه الأبعاد الإناسية في قوله «إن الثقافة حشد من الرموز والرسالات عبر أعظم ما يبدعه الإنسان، فهي تتذبذب في النفس على نحو أشد ما يوحي به أي نصب تذكاري. إنها بحر من الذكريات والعبر وخيالات المستقبل نسبح فيه طوال حياتنا، وإن كلّ من يسبح فيه من الرجال والنساء والأطفال لديه القدرة على تغيير هذا البحر على خلاف الأسماك، وذلك بخلق بصيرة جديدة، وظرف جديد للرؤية والعمل والكينونة»(4).

ولكي تتضح في الأذهان المرجعية العامة لهذه التعاريف والتحديدات حسب الحقول المعرفية نستحضر التحليل الفلسفي العام الذي يعتبر الثقافة هي كل ما يضيفه الإنسان إلى الطبيعة ممّا يبدعه من رموز وأنظمة وصناعات يستعمل فيها أشياء الطبيعة نفسها وموادها الخام. فالألبسة التي تستعمل أشياء الطبيعة هي إضافة إنسانية، وكذا الطهي والعمارة والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وسلاليم القيم وصنوف الخلق الأدبي والفني. وبصفة عامة ما يكون مصدر إبداعه هو الكائن البشري، فكل تغير يطرأ على الطبيعة أو يضيف ما ليس منها هو شأن ثقافي في الجوهر. وبالتالي فإن «الثقافة متغير مركزي يفسر مختلف أنماط التميز [إنها] تشكّل التفكير والخيال والسلوك، وهي في نفس الآن مصدر دينامي للتغيير والإبداع والحرية»(5).

يطرح بهذا الصدد سؤال مشروع وهو : ما الذي يتيح للإنسان أن يضيف إلى الطبيعة ما ليس منها؟ الإجماع حاصل على أن العقل الذي يتميّز به الإنسان هو الذي يتيح له تأسيس ما هو ثقافي للانتقال من حالة التوحش إلى حالة التحضر. المحصلّة النهائية أن ما ينضاف إلى الطبيعة يرصده التاريخ ويتراكم في الذاكرة بشكل موعى به ومتداول عبر الأجيال. لذلك فإن للتاريخ كما يرى (بوركهاردت) ثلاث قدرات هي (الثقافة، والدولة، والدين). الدولة والدين هما التعبير عن الحاجة السياسية والميتافيزيقية، أما الثقافة فهي حصيلة أنشطة الفكر التي تمارس عفويا ولا تدعي أن لها قيمة كونية أو أن لها قوة الإلزام. الثقافة تتبدّل باستمرار ما دامت هي سيرورة (processus) ذات أوجه متعددة يتحول بها النشاط البدائي والعفوي إلى معرفة واعية تصل إلى أرقى مستوى، أي إلى مستوى العلم والفلسفة والتقنية. الثقافة تتجسم ظاهريا مقابل الدولة من خلال اجتماعية الإنسان أو نظام العلاقات بين الأفراد(6).

اعتمادا على ما سبق عرفت الإنسانية في بداياتها الوجودية شكلا ثقافيا واحدا ومظهرا كليا غير متجزىء، لكن مع تعقّد السياقات الجغرافية والتكاثر الديمغرافي والحركية السكانية برزت التمايزات الثقافية : لسنية ومعرفية وقيمية، وحدث التنوع الذي يقيم الحدود بين الهويات وملامح الخصوصيات.
حين انتقلت الإنسانية من حالة ثقافية أصيلة كلية ووحيدة إلى بروز الثقافات المتنوعة والمتعددة اتخذت الثقافة تجليات تختلف باختلاف الجماعات على ما بينها من شبه في شكل يذكّر بالأصل المرجعي لحظة الانتقال من حال الطبيعة إلى حال الثقافة، وهذا ما أوضحه (برونيسلاف مالينوفسكي) في كتابه «نظرية علمية في الثقافة(7)». هذه التنظيرات تتيح لنا أن نثبت حقيقة لا غبار عليها وهي أن نواة كل هوية متميزة هي الثقافة في مدلولها الوجودي، سواء في لبوسها العلمي وهو ما يتعارف عليه بالثقافة العالمة، أو في لبوسها الإناسي العام أي ما يدخل ضمن الثقافة الشعبية أو الجماهيرية والصنائع المهن من خلال ما ينتجه عامة الناس بوعي أو بدون وعي، ويورّث أبًا عن جدّ.
نحتاج على مستوى التحليل الثقافي إلى أن نلفت الأنظار وبهدف المزيد من التوضيح إلى رسم الحدود المفاهيمية بين الثقافة والحضارة، ولو أن بعض اللغات لا تقيم فرقا بينهما كما هو الشأن في اللغة الألمانية. بهذا الصدد نعثر في مؤلفات (توماس مان) على إشارات دالة تؤكد أن الثقافة والحضارة على طرفي نقيض، فهما يشكلان إحدى مظاهر التعارض الكوني الخالد بين الفكر والطبيعة. ويضيف أيضا أن لا أحد يجادل في أن المكسيك إبّان اكتشافها كانت تملك ثقافة، ولكن لا أحد يمكنه أن يدعي بأنها كانت متحضرة. الثقافة ليست هي بالتأكيد مقابل البربرية، وفي الغالب الأعم ليست هي على الضد من ذلك. إلا وحشية من أسلوب راق. وفي العهد القديم ينتصب الصينيون كأهل ثقافة وحضارة في نفس الآن. ويتأدّى هذا المفكر إلى أن الثقافة انغلاق وأسلوب وموقف وذوق، إنها نظام ما للعالم، ولا يهمّ أن يكون هذا النظام ضربا من المغامرة أو التوحش أو التجريح أو الرعب، بل تتضمن الثقافة بالإضافة إلى هذا وذاك وسطاء الوحي أو السحرة أو الشواذ أو القرابين البشرية أو النّحل الكهنونية أو محاكم التفتيش أو الرقصات الطقوسية أو الشعوذات الخ...
أما الحضارة فهي الأنوار والرقة واللياقة والرّيب والراحة إنها أمور مدنية تسم المتحضرين. وقد حسم (هيجل) كبير فلاسفة الألمان القضية بوضع حد فاصل بين الثقافة والحضارة، وهو الحد بين الترعة الذاتية والترعة الموضوعية. إن الثقافة هي المجهود الذي يبذله الإنسان سعيا للكمال عبر مختلف أجناس التعبيرات الذاتية، في حين أن

الحضارة هي المجهود المبذول لتغيير العالم مما يظهر في أعمال عينيّة محسوسة تعكس مظاهر التقدم، لذلك فالثقافة هي من تجليات التحضر، وكل ثقافة جديدة تفرزها حضارة جديدة(8).

وكنتيجة لهذا التقابل بين الثقافة والحضارة فإن هذه الأخيرة تنطوي على ثقافات مختلفة وهويات متعددة، كل ثقافة وكل هوية تتمسك بتميزها وتناضل من أجل الحفاظ على أصالتها. وقد أجمل (ألفريد ڤيبر) الفرق الدقيق بين الثقافة والحضارة في أن هذه الأخيرة هي جملة المعارف النظرية والتطبيقية غير الشخصية، يُعترف بصلاحيتها وإمكانية تناقلها، في حين أن الثقافة جملة العناصر الروحية والمشاعر والمثل التي ترتبط بمجموعة بشرية معيّنة وحقبة زمانية محددة، ورقعة مكانية بارزة أو ما سماه المؤرخ المصري جمال حمدان عبقرية المكان. الثقافة سيرورة أما الحضارة فإنها شكل أو صورة. ما هو عفوي هو ثقافي وما هو ملزم هو حضاري. واضح، إذن، أن الثقافة هي عنصر من عناصر التكون الحضاري، ولا أرى مانعا في أن أدرج هنا مقولة مالك بن نبي «أن الثقافة هي المحيط المعنوي الذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر»(9).

نستنتج من هذا أن الثقافة نمط متكامل لحياة أفرادها، وبعبارة أوضح لا توجد الثقافة إلا بوجود جماعة أو مجتمع لهما معتقداتهما ومعارفهما وعاداتهما ورمزياتهما. لخّص كل ذلك (غوربونوف) في قوله «إن مفهوم الثقافة ذو طبيعة اجتماعية عميقة من حيث جوهر مضمونه لكونه يعبّر عن نتيجة النشاط الاجتماعي للإنسان والإنسان فقط، وهذه الحقيقة تجبرنا على إيلاء العوامل الذاتية اهتماما خاصا»(10).

وعليه فإن التجمع البشري تؤسسه الثقافة باعتبارها القيمة المضافة على الطبيعة، يؤسسها العقل المميز للإنسان، وحين تتخذ الثقافة شكلا أو صورة ملزمة موضوعيا (أي الحضارة) فإنها تهذب سلوك الأفراد فتجعل من البشر كائنات متمدنة. وعلى حدّ قول الجابري «المسألة الثقافية تبقى مقولة فارغة إذا لم تضف إلى جماعة بشرية معينة، طائفة أو شعب أو أمة أو حضارة»(11). ويضيف «إن الثقافة كالنهر، إذا لم ترتو منه مختلف مرافق الحياة البشرية، السياسية والاجتماعية والاقتصادية جفّت ينابيعها وأصبحت مساحاتها صحارى لا ينبت فيها غير اليابس من الأعشاب والشائك من الشجر»(12).

إذا كانت الثقافة تؤسس المجتمع، فإنّ المجتمع بدوره يعدّل مسار الثقافة، بين الاثنين علاقة تبادلية تساندية، بحيث نستطيع التأكيد على أن مجتمعا ما تخلقه الثقافة، وأن ثقافة ما يؤسسها المجتمع، وأن كلّ تغيّر يطرأ على المجتمع لابدّ من الوساطة الثقافية، وأن كل ثقافة جديدة لابدّ لانبثاقها من الوساطة

الاجتماعية. التغير الاجتماعي والجدة الثقافية ديالكتيك وتفاعل وتآثر، تثاقف عند ابن خلدون ومثاقفة عند التوحيدي. التغير الاجتماعي تنذر به مؤشرات ثقافية، والجدة الثقافية تنذرها مؤشرات اجتماعية، التغير الاجتماعي يستتبع ثقافة جديدة، وتجديد الثقافة يستتبع قيما اجتماعية وإنسانية وحارية جديدة. ولو وضعنا سلما للقيم الثقافية جنبا إلى جنب مع سلم للقيم الاجتماعية لقررنا ـ كما يؤكد ذلك مالك بن نبي ـ «أنّ المسلمين يتجهان نفس الاتجاه من الأسفل إلى الأعلى، أي أن المراكز الاجتماعية تكون تلقائيا موزعة حسب الدرجات الثقافية»(13).

من ناحية أخرى يؤكد العديد من الباحثين ومنهم (غوربونوف) أن الثقافة تتحمل مهاما متكثرة، فهي تتولى مهمة التربية السياسية للجماهير، كما تتولى مهمة تربيتها الجمالية والأخلاقية، محصلة هاته التربية إحداث قيم جديدة تنتقل بها الإنسانية من حال إلى حال، وفي الأغلب الأعم من حسن إلى أحسن في حركة تصاعدية تقدّمية مما يحسّن الانتاجات، ويهذب السلوكات ويرشّد الإمكانات المادية والاقتصادية ويعضّد العلاقات بين الأفراد داخل الجماعة الواحدة أو بين الجماعات المتعدّدة. ومن الأكيد أن الثقافة هي دعامة كل حركة تنويرية وتحديثية. وعندما نقول الثقافة نُدرج ضمنها الفنون، بحيث إن الإبداعات الفنية العظيمة ليست نسخا لواقع كما يقول (تولستوي) بل تعكس ما هو نموذجي في الحياة، وتعمّمه كقيم مستجدّة تلطف مزاج الأفراد وتجنّبهم الوقوع في العديد من أنواع التلوّث العقلي أو النفسي، والعديد من أشكال التوترات الاجتماعية داخل الأسرة أو خارجها.

نستطيع أن نذهب بعيدا في التحليل فنؤكد بأن الثقافة بكل مفاهيمها وبكل ما يتراكم في ذاكرتها تحدث آثارا عميقة فمن أهمّ ما تُثمره كيفا هو تقوية الروابط الاجتماعية مما يؤسس لأخلاقية (moralite) تكسب مناعة نفسية بل وحتى اجتماعية متأتية من رسوخ قيم التمدّن والتحضّر التي تُعلي من مكانة الإنسان. ويتأكد يوما بعد يوم أن قيم التمدن والتحضر هي من فعل الثقافة، وتنسُج علاقات انسجام بين الثقافات المتنوعة، وتزرع في نفس الإنسان دافعا قويا لاحترام الثقافات المغايرة والإقرار بالاختلاف، وبذلك تتأسس أخلاقيات التسامح التي أصبحت في يوم الناس هذا ضرورة لاستتباب السلم العالمي.

إذا كنا قد وفّقنا لحد الآن في الربط الايجابي بين الثقافة والقيم، فإن الأمر لا يخلو من بعض المفارقات التي لا تحسب في خانة ايجابيات الفعل الثقافي، فالتأكيد على أن فعل التفكير الطبيعي يتعدّل بقوة الثقافة بادماج البعد القيمي كخير عام، فإن الانحراف بالثقافة نحو دوغمائية عقدية أو سياسية، أو نحو إيديولوجيات عدمية (انهزامية) يؤدي إلى

شرور عامّة تنشر قيما مضادة لا أخلاقية (amorale). اعتبارً لذلك يتردى الناس إلى مجتمع الرذائل فتعوّض الثقافة بانشطة اللهو والاستهلاك المبالغ فيه لمنتجات التسلية الرخيصة تجزية للوقت فيما لا يفيد وينتهي الأمر إلى أزمة ثقافية تتخذ أعراضا مرضية كانعدام التكوين والنفور من القراءة وشحّ الإبداع والعطاء. بهذا الخصوص نبّه (إدوار. ت. هيل) إلى أمر مفاده أن ثقافة الإنسان المعاصر قد تتعرض لأزمتين متداخلتين : الأولى وهي أكثر بداهة تخص العلاقة بين الساكنة والبيئة، والثانية أقل بروزا وليست أقل إثارة وتخص الإنسان وعلاقته مع ذاته وامتدادات هاته العلاقة مما يترتب عن مؤسساته وأفكاره ومحيطه المباشر أو الأوسع، بكلمة واحدة العلاقة التي له مع الثقافة(14).

إذا لم يتحكم الأفراد في عدد من المواقف التي يتسرّب اليها التأثير السيء للثقافة العدمية أو لثقافة الاستلاب، ومنها الثقافات الظلامية، فإن صورة الذات تتزعزع وتفقد الثقة في القيم الايجابية، وبالتبعية تصبح رؤي الفرد للعالم أقرب ما يكون الى التوحّش الذي طبع الحالة البدائية للإنسان، فيحدث ذلك الشرخ الخطير في العلاقة بين الشخص وثقافته بوسوسة شيطان رجيم متنكر للقيم الإنسانية والحضارية، وذلك ما أدرجه (نيتشه) تحت مسمّى أزمة القيم أو الحط من قدر القيم العليا.

والحقيقة أنّ العولمة التي نستظل بظلها اليوم كأمر واقع بسلبياتها وايجابياتها هي شأن ثقافي له واجهات اقتصادية وتكنولوجية يعطي الدليل القطعي على العلاقة الجدلية بين الثقافة والقيم الإنسانية والحضارية. ذلك أن العولمة باختياراتها الليبرالية والرأسمالية المتوحشة تسبّبت في إرساء قيم جديدة لتنقلت بها مجتمعات الجنوب من قوة الإنتاج إلى ضعف الاستهلاك، من مجتمعت التمايز الثقافي إلى مجتمعات التنميط تحت وطأة النموذج الثقافي الوحيد المعمّم. أكثر من هذا نجحت العولمة في فرض قيمها على أنها كونية وشمولية وكوكبية على اعتبار أنها أهم من القيم المحلية المميزة، معززة تلك الهيمنة بسلاح الإعلام والاتصال.

لقد أصبحت الثقافة المعولمة مفرغة من بطانتها القيمية فحلّت المعلومة محل المعرفة، وقلّصت من الآثار الايجابية للإبداعات الأدبية والفنية، وتسبّبت في نوع من التسوية والتسطيح في الأفكار والمشاعر، وأشاعت منطق التنافس غير الشريف، والمزاحمة غير المتكافئة. من جراء هذه التحريفات أمسى التنوع الثقافي مهددا، الأمر الذي دفع الغيورين إلى التكتل في حركات مدنية تدعو إلى عولمة ذات وجه إنساني تعزز الحضارة الإنسانية ولا تعرضها لمخاطر التدهور، وعمّت الدعوة لإعادة تأسيس القيم على حد تعبير محمد أركون، وذلك في إطار الخصوصيات الثقافية

التي هي نواة الهوية، تأكيدا للحقيقة الساطعة وهي أن القيم تبنى على أرضية الثقافة، وأن كل ثقافة تحمل في طياتها منظومة قيمية مميّزة. والذين هم على اطلاع واسع بنظرية القيم (axiologie) يعرفون حق المعرفة أن القيم هي -كما أسلفنا- حصيلة تمثّلات جمعية تضبط العلاقات بين الأفراد كعامل توازن واستقرار. باعتبار كون الثقافة مصدراً لإبداع القيم الإنسانية والحضارية والحفاظ عليها فإنها لا تعدم الوسائل للاستمرار في أداء وظائفها هاته، وعلى رأس تلكم الوسائل التربية والتعليم الصناعي بالمفهوم الخلدوني، أي التعليم كمهنة ومنظومة. بمعنى أن الثقافة برنامج تربوي قائم على فلسفة أخلاقية ومعارف تشرط سلوكات البشر وتدمجهم الاندماج الناجح في وسطهم الاجتماعي وهُويتهم الحضارية بما فيها المجال الروحي (noosphere)، لأن الثقافة هي في الحقيقة «التعبير الحسّي لعلاقة الفرد بهذا المجال»(15). وحين نلحّ على التربية والتعليم كوسيط تعتمده الثقافة لترسيخ القيم والحفاظ عليها فإنه لا يغيب عن البال تعدد الفاعلين في الوظيفة التعليمية من رجال السياسة والحكماء والعلماء والمفكرين والفنانين ورجال القانون ورجال الأعمال الذين يفرزهم النظام التعليمي ويُثوّرونه في نفس الوقت. وتأسيسا على هذا فإن التعليم هو مصنع الثقافة والمثقفين وكلما كان هذا النظام قويا وفعالا كلما ازدهر سوق الثقافة. الرهان على التربية والتعليم هو الطريق السالك إلى بناء مجتمع واع متنوّر يفرز موانين يعرفون حقوقهم وواجبهم، ويشاركون في بناء نظام أسيسته دولة الحق، فلا ديمقراطية بدون ديمقراطيين.

يهمّني، في إطار نفس الموضوع أن أقف قليلا للكلام وباختصار شديد على ما يؤطر النسق القيمي من الأصناف المعرفية، فمن المعلوم أن الطروحات الاكسيولوجية تأخذ منطلقاتها النظرية من فروع فلسفية ثلاثة هي الميتافيزيقا والانطولوجيا والايستولوجيا :

– الميتافيزيقا باعتبارها حفريات في «المابعديات» فإن خاصيتها التجريدية تؤسس لما ينبغي أن يكون عليه المضمون الروحي والأخلاقي للقيم الإنسانية، وهذا أمر يتجلى بوضوح في تاريخ الفلسفة طولا وعرضا، من (سقراط) إلى (هيجل)، والنبهاء من العارفين لن يصعب عليهم تصور البعد التجريدي للقيم، وهو تصوّر تؤيّده الملل والنحل، وحتى سؤال الثقافة كما يرى (هومى. ك. بابا) يتموقع في عصرنا في عالم الـ «ما بعد»(16) باعتبار الذات المنتجة للثقافي هي في نفس الوقت المنتجة للقيم.

– الانطولوجيا باعتبارها تطلّع إلى تحقيق كينونة متعالية أو محايثة تؤطر القيم، من حيث أن المقاربات الانطولوجية تربط الوجود بالغايات والأهداف والمُثُل، ذلك ما يجعل

قضايا الوجود أميل إلى المعيارية منها إلى الوضعية وتلك هي خاصية القيم ايجابية أو سلبية، محررّة أو مستلبة، وقد بلغت زصالة هذا الطرح مداها في المدرسة الوجودية التي بوأت الحرية المسؤولة الملتزمة منزلة قيمة القيم كلها. وفي تراثنا العربي الإسلامي نستحضر تلك المقولة الرشدية التي وصف بها أبو الوليد بن رشد أحد أولياء مراكش وهو أبو العباس السبتي بأن هذا النوع من الفضلاء ينفعل وجودهم بالجود، أي أن وجودهم هو وعاء للقيم.

ـ الابستمولوجيا باعتبارها مبحث المعرفة تحدد الشرط أو المناخ المعرفي (episteme) الذي يعطي لكل فترة من فترات التاريخ تميّزا ومستوى نسبيين ومتغيرين. من ذلك أن القيم تتناسب مع ما يبلغه الانسان في فترة ما من المعارف، لذلك فإن قيم أي عصر تختلف عن قيم عصر آخر، تماما كما هو الشأن في الفيزياء على سبيل المثال، ففزياء عصر (غاليلي) ليست هي فيزياء عصر (نيوتن) أو عصر (إينشتاين)، سبب ذلك وهذا أمر بديهي، يعود إلى أصول المعارف وإلى ما استطاع العقل أن يفكّكه من ألغاز الكون وأسراره.

ـ واضح أن هذا السياق الفلسفي الذي تتأسّس داخله القيم هو سياق ثقافي بامتياز، يتجاوز به الإنسان الحالة الطبيعية بفعل ما خُص به الإنسان من الطاقات العقلية والوجدانية والتخيلية، وما يوظّف فيه هذه الطاقات من إبداعات ومكتشفات واختراعات.

قد يقول قائل بأن تبويء القيم هذه المنزلة الرفيعة في علاقتها بالفعل الثقافي هو ميل سلفي أو ماضوي، والحقيقة أن التأكيد على القيمة الثقافية للانساق القيمية هو توظيف للماضي لاتخاذ مسار آمن نحو المستقبل بخطى واثقة دون التعرض لأخطار الطريق، فالسياقة الجيدة مثل الحكامة الجيدة تفترض في نفس الوقت النظر إلى الأمام وإلى الخلف، دون الانشداد إلى هذا الخلف سواء عفويا أو بإصرار.

لاشك أن الجميع يتّفق معي أن البحث في مصادر القيم أو جينيالوجيا القيم بالمعنى الذي عند (نيتشه) أي تعيين البدايات، يقودنا مؤكدا إلى ان القيم وخاصة الإنسانية والحضارية، أو بتعبير أفضل القيم العالمية، تنبثق في وجدان الإنسان من منطلقات ثقافية، وتشرط سلوكه من خلال معايير ونماذج نظرية «متجذرة في الثقافة، والثقافة نفسها تختصر جوهرها في سلسلة من النماذج الوحّدة في التفكير والسلوك»(17).

هكذا فإن الثقافة كما في منظور (مالينوفسكي) «تنطوي على عناصر هي على ما يبدو غير مدركة ولا تطالها الملاحظة المباشرة [...] والمقصود من ذلك عامة الأفكار والقيم والمعتقدات والمصالح(18). الثقافة بهذا المنظور تُعيد بنية الوعي فتبثّ فيه الاستنارة والتمسك بالحرية المسؤولة وهي

قيم الحداثة، وفي نفس الوقت يتحقق بها بناء العقل الذي هو مصدر إبداع القيم، وهذه هي العلاقة الديالكتيكية بين الثقافة والقيم، علاقة تمثّل صلب الإشكالية التي اشتغل عليها مفكرون كثر منهم (بيير بورديو) و (هانا أرندت) التي قالت بصريح العبارة «الثقافة نفسها هي ما كنا نطلق عليه فيما قبل «قيمة» بمعنى سلطة مجتمعية نداولها وننجزها»(19).

انتماء القيم هو إذن إلى المخزون الروحي «القلب والوجدان» وإلى المخزون العقلي «الضمير» بحيث تتبدّى القيم كأنماط كينونة ووجود وفعل، وكمثل عليا هي معيار الفصل بين الخير والشر.

الثقافة من حيث هي تجريدات هي في أمس الحاجة إلى من يجسّدها فوق أرضية الواقع وعلى مستوى المعيش اليومي، يتصدّى لهذه المهمة المثقفون (أو الانتلجنسيا) الذين يمثلون الفئة المثوّرة داخل المجتمعات من خلال ما تدعو اليه من قيم التقدم والعدالة والالتزام بقضايا الشعوب. إنها فئة توجد دائما خارج أبنية السلطة. تعبر عن مواقفها باسم المبادىء الأخلاقية. نعثر على هذه المواصفات في حالة (إميل زولا) وهو يتّهم، وعند (جوليان بندا) وهو يطالب المثقفين بأن يظلوا على ولاء للأفكار وللقيم العالمية «إنسانية وحضارية»، بحكم كونهم حملة «يوتوبيا» أي حملة الأمل في مستقبل أفضل.

كتب (صامويل كولريدج) إلى صديقه (وليم ووردزورث) سنة 1799، وهما من نماذج المثقفين اليوتوباويين، كتب يقترح عليه أن ينهض لمقاومة حالة التبرم والسلبية السائدة في وقتهما ويقول «أريد منك أن تكتب قصيدة من الشعر المرسل، موجهة لأولئك الذين تخلّوا، نتيجة الإخفاق الكامل للثورة الفرنسية، عن أيّ أمل في مستقبل أفضل للإنسانية وغرقوا تماما في أنانية أبيقورية، يخفونها تحت أقنعة العناوين الناعمة للترابط الأسري واحتقار الفلسفات المثالية الحالمة».

المثقفون بهذه المواصفات هم في الغالب محط كراهية السلَط الحاكمة لأنهم دعاة تغيير ودعاة إصلاح، وقد آن الأوان لمصالحة تاريخية بين المثقف ورجل السلطة لتتكافل الثقافة والسياسة من أجل ترسيخ القيم الإنسانية والحضارية وعلى رأسها العدالة والتسامح والسلم. المثقف هو حامل سلاح القلم، هو اللسان المعبّر عن آمال الجماهير العريضة، هو المحفّز على أن تطالب الشعوب بحقها في الكلام. من الواجب الإقرار بأدوار المثقفين كأصحاب سلطة ثقافية هي المعادل المنطقي للسلطة السياسية.

أستاذنا الفيلسوف الراحل محمد عزيز الحبابي وُفّق إلى حدّ بعيد في صياغة أفكار من هذا القبيل وبأسلوب بليغ. ففي كتابه «من المنغلق إلى المنفتح» يقول «إن الثقافة المناضلة هي وحدها الثقافة الحق، أما ثقافة

التظاهر والمظاهر، ثقافة الارستقراطية الفكرية فمثلها مثل حِلْيٍ مزوّر، عقد ذي أحجار مصطنعة، فلربّما تفسخت مقوّمات الثقافة وانقلبت ضررا على المثقفين، وخطرا على مجتمعه. إن كل ثقافة لا ترتفع إلى مستوى الإنسان، الإنسان على وجه الشمول هي هُراء وعبث [...] الثقافة التي نحن في حاجة اليها هي التي ترمي إلى أنسنة العالم لصالح المجموعة الإنسانية، الثقافة في مفهومها العميق تنقل الوعي من الوعي بالكرامة الذاتية إلى الاعتراف بكرامة الإنسان»(20).

أعود إلى الحالة التونسية فأقول إن هذا البلد الشقيق مؤهّل للاعتراف بالوظائف التنويرية والقيمية للثقافة، وبأدوار المثقفين الملتزمين في ترشيد السياسة وفي إصلاح الشأن الاجتماعي، إنها دولة مؤهلة للاعتراف بما يمكن أن تسمح به الثقافة والمثقفون في ترسيخ دولة الحق والمؤسسات، وفي انجاز المشروع الحداثي الديمقراطي الذي كان هو هاجس كل الإصلاحيين الذين عرفتهم هذه البلاد منذ فجر القرن التاسع عشر إلى يوم الناس هذا مرورا بالانجازات البورقيبية وبالتحول الصائب للسابع من نوفمبر. لابدّ أن تكون الثقافة والمثقفون محط الثقة الكاملة والمطلقة لاتخاذ المسار الصحيح الموصل بكل تأكيد إلى التقدم، وبخطى ثابتة. ما يقال عن تونس يصدق على كل دول الجنوب التي انطلقت إقلاعتها الحضارية.

الهوامش:

1 ـ محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984، ص 21.

2-

3 ـ التصريح الصادر عن المؤتمر العالمي حول السياسات الثقافية، مكسيكو، من 26 يوليوز إلى 6 غشت 1982.

4 ـ فدريكو مايور، الصفحة الجديدة، اليونسكو ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1994، ص 25.

5 ـ التنوع الإنساني المبدع، اللجنة العالمية للثقافة والتنمية برئاسة خافير بيريز ديكويلار، منشورات اليونسكو، 1995، ص 10.

6 ـ Voir : Universalis, PUF, Paris, Tome 5, p. 876

7 ـ Bronislav Malinowski, une théorie scientifique de la cuture, F. Maspero, Paris, 1963, p. 60.

8 ـ Juan Cazeneuve, Civilisation, universilas, Corpus 4, PUF, Paris, 1988, pp. 1182 - 1186.

9 ـ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ، ص 3.

10 ـ ف. ف. غور بونوف، في الثقافة، ترجمة يوسف حلاق، دار الفارابي، بيروت، 1982، ص 249.

11 ـ محمد عابد الجابري، نفس المرجع، ص 20.

12 ـ محمد عابد الجابري، نفس المرجع، ص 237.

13 ـ مالك بن نبي، نفس المرجع، ص 135.

14 ـ Edward . Hall, Au-delà de la culture, Seuil, Paris, 1979, p. 7.

15 ـ مالك بن نبي، نفس المرجع، ص 69.

16 ـ أورد هذا الاستشهاد (راميل جاكوبي) في: «نهاية اليوتوبيا» ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة، عدد 269، الكويت، 2001، ص 10.

17 ـ هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة ثائر ديب،

المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، ص 37.

18- E.T. Hall, IEM, P. 18.

19- Hannah Arendt, La crise de la culture, col folio, Gallimard, Paris, 1972, p. 11.

20 - محمد عزيز الحبابي، من المتغلق الى المنفنح، ترجمة محمد برادة، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة 1973، ص.ص. 269_270.

الخطاب الثقافي للتحول

(الفلسفة والأهداف)

بقلم : د. ألفة يوسف

من نافل القول ضرورة تحديد المفاهيم فلا يمكن للباحث الاقتصار على اعتماد الدّوال وفق مداليل قد تختلف من شخص إلى آخر لا سيما والأمر يتعلق بعبارات مصطلحات تكاد لفرط استعمالها وذيوعها تتحلّل من معناها بل لعلّها عبارات ومصطلحات تكاد لكثرة تداولها ووضوحها تكتسب ألبسة شتّى تخفي أكثر ممّا تكشف.

تدور كلمتنا هذه حول الخطاب الثقافي للتحول، ومفهوم الخطاب عندنا يشمل كلّ ما هو مقول ويشمل في الآن نفسه أطر القول وسياقه ومقامه، فالخطاب عندنا في هذه الكلمة ليس كلاما معزولا عن سياقه اللغوي ولا عن مقامه التاريخي ولا عن ظروف قوله ومجالاتها. أما تعريف الثقافة فعسير يوشك لفرط مداورته أن يفر عن أن تحيط به اللغة ولتجاوز مثل هذه العوائق يمكن أن نعرّفه بالسلب. فنقول إنّه إذا كانت الثقافة لا تتصوّر في الفلسفة بمعزل عن ثنائية اتصالها بالطبيعة فإنّ هذا المعنى لا يخصنا في هذه المحاضرة. لماذا؟ لأنّه بالاستناد إلى الدراسات الأنتروبولوجية لليفي ستراوس وما أفادته منه الدراسات النفسية انطلاقا من فرويد حتى لاكان ويونغ، فان الطبيعة لا تعدو أن تكون في المجال البشري مفهوما متصورا ممكنا ولكن غير كائن بأي حال من الأحوال، فكلّ ما يتجسّم في تعاملات البشر قديمهم وحديثهم يندرج في إطار الثقافة، حتى ما كان يسمّى مجتمعات بدائية لا يخرج عن المجال الثقافي. ولتبسيط الأمور يمكن أن نقول إن اعتماد الإنسان اللغة يجعله بالقوة ضمن مدار الثقافي. على أنّ هذا التعريف للثقافي عام جدا لا يمكن لفرط عمومه أن يفيدنا وإلاّ غدت كلمتنا شاملة لكل ضروب الخطاب، باعتبار إنّ كلّ خطاب ثقافة. وإذا نشدنا الإفادة (pertinence) لمعنى الثقافة تواضعنا على أنّ الثقافي يشمل المعارف والتربية والعلوم والبنى الاجتماعية والدينية وأنماط السلوك الجماعية والفنية التي تسم مجتمعا ما، وبعبارة أخرى تشكل الأنظمة الرمزية ذات المنحى الفكري أو الجمالي الإبداعي. وهذه الأنظمة تعدّ مواضيع الثقافة ويعدّ ممارسوها المشتغلين بالشأن الثقافي (اخترنا عمدا أن نتجنّب كلمة المثقفين لأنها تحفّ بدلالات التزامية كثيرة لها معنى إيديولوجي).

وبعد أن حددنا نسبيا مفهومي الخطاب

والثقافي بقي أن نحدّد العلاقة بينهما. فالقول ليس مجرد جمع تراكمي بين الكلمات بل إنشاء لعلاقات نحوية إعرابية بينها. وإنّنا إذ نهتم في هذه الورقة بالخطاب الثقافي لا نعني الخطاب الذي ينتجه المشتغل بالشأن الثقافي (المسرح بهذا المعنى خطاب ثقافي) ولكننا نعني الخطاب الذي يتخذ الشأن الثقافي موضوعا له والفرق بين الأمرين بيّن كالفرق بين الثقافي صفة للخطاب وبين الثقافي إحالة على موضوع الخطاب. وهذه النسبة «الموضوعية» قد تسمح لنا حتى بأن نعاوض بين «الخطاب الثقافي» وخطاب الثقافة. إننا في هذه الورقة نعتني بالخطاب الثقافي، أي بخطاب الثقافة. أي بالثقافة موضوعا لنبحث في فلسفة الخطاب وأهدافه. ونرى الوجهين مترابطين أيّما ارتباط ذلك أنّ فلسفة الخطاب هي الأسس الفكرية التي يقوم عليها في حين أنّ أهدافه هي ما يتصوّر أن ينتج عن تلك الأسس الفكرية في الواقع بمختلف ضروبه.

ومن البديهي أننا إذ نهتم بخطاب ثقافي نقتضي وجود منشىء لهذا الخطاب. وعنوان الكلمة يؤكد ذلك إذ أننا نبحث في الخطاب الثقافي للتحول. والتحول نقلة سياسية في تونس منذ نوفمبر 1987، التحولّ عهد جديد تعيشه البلاد في مختلف المجالات والأصعدة يعتمد خطابا وفعلا وجدلا بينهما. وقد اخترنا إذ نسب عنوان المداخلة الخطاب للتحولّ أن نقتصر على اتخاذ مدونّة أنموذجا، فلا يمكن طبعا أن ننظر في كلّ ما قيل في الثقافة منذ عشرين سنة. واخترنا أن نتخذ خطب سيادة رئيس الجمهورية التونسية زين العابدين بن علي في الشأن الثقافي مدوّنة أنموذجا لبحثنا على أساس أنها وهي الصادرة عن أعلى سلطة في البلاد، تسمح لنا أكثر من سواها بتبيّن فلسفة الشأن الثقافي في تونس وأهدافه.

ما هي فلسفة الخطاب الثقافي للتحول ؟

تتجسم هذه الفلسفة من بعض ميزات الخطاب الثقافي :

1 – مجالات الفعل الثقافي

- لا تشير خطب سيادة الرئيس إلى تعريف للمجالات الثقافية بوجه مباشر لكنها تعرض ضمنيا لمجالات الفعل الثقافي بالوقوف عند الموسيقى والفنون الركحية والفنون السمعية البصرية والكتابة والنشر ولئن كانت هذه المجالات «كلاسيكية» في التصورّ الشائع للثقافي، فإنّ خطاب التحول يضيف اليها «الحرف والصناعات التقليدية باعتبارها إبداعات مستمدة من تراثنا الثقافي والاجتماعي» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 29 ماي 2006). ومن جهة أخرى يمكن اعتبار تكريم المبدعين في ميدان الصحافة (في الأيام الوطنية للثقافة) إدماجا ضمنيّا لهذا الميدان ضمن المواضيع الثقافية. وعلى أساس أن التسمية لا تكون اعتباطا فإن تسمية وزارة الثقافة والمحافظة على التراث تستدعي الاهتمام. فهل واو العطف في هذا

المستوى واو عطف نسقي (وفق مصطلحات النّحاة) تفرّق بين عنصرين مختلفين بما يجعل المحافظة على التراث خارجة عن الثقافي ومختلفة عنه أم هل واو العطف هنا أقرب إلى عطف البيان (وفق مصطلحات النّحاة) فتفيد تأكيدا تضمّن العنصر الثاني ضمن العنصر الأول أي تفيد تأكيدا للعنصر الثاني. إنّ هذا التصوّر الذي يعدّ المحافظة على التراث من وجوه الثقافة التي يؤكد عليها خطاب التحول أقرب تأويلا لا سيما عند الاستئناس بقول سيادة الرئيس : «وإذ نحرص على صيانة تراثنا الزاخر ومعالمنا الثقافية الممتدة عبر ربوع الوطن كافّة ونبذل جهودا متواصلة لصيانتها والحفاظ عليها فإننا نعمل في الوقت ذاته على إحياء هذا التراث وتوظيفه» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 29 ماي 2006).

إنّ ما سبق كلّه يثبت توسيعا للموضوع الثقافي من شأنه أن يقتضي ضرورة للفاعلين الثقافيين، ولا يقتصر هذا التوسيع على زيادة عدد الفاعلين في الشأن الثقافي كمّا بل يتجاوز ذلك إلى توزيع المساهمة الثقافية نوعا من خلال تكثيف الاستشارات الوطنية في المجال الثقافي (الاستشارة الوطنية الواسعة حول تونس الغد في فكر مثقفيها (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 9 جوان 2001) الاستشارة الوطنية حول وضع قطاع الموسيقى 2006 (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 29 ماي 2006)، الاستشارة الوطنية الموسعة حول المسرح التونسي (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 2 جوان 2007) ممّا يحوّل المبدع من فاعل إجرائي ينشىء إلى فاعل متصوّري يبلور ويقترح.

2 ـ مجال الفعل الثقافي في خطاب التحوّل

قائم على الجمع بين الحفاظ على الهوية والانفتاح على سمات العصر، ولا شكّ أنّ هذه الثنائية مسطّحة بل مهترئة إذا أقامت على التقابل والتنافر بين العنصرين ولكنها ثنائية خصبة مولّدة إذا أقامت جدلية بين العنصرين بما يولّد عنصرا ثالثا يقوم على الوعي بالانخراط في حضارة كونية، فسيادة الرئيس لا يكتفي بأن يقول «وقد حرصنا في تونس على التمسك بأصالتنا وتراثنا والانخراط بوعي وتبصر في مسيرة الحداثة والتقدم» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 27 ماي 2004) ولكنّه يؤكد في الآن نفسه وعيا عميقا بـ «إسهامات بلادنا عبر التاريخ في مسيرة الإنسانية الحضارية والفكرية» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 22 جوان 2000). وإضافة إلى هذا التصريح الواعي بأننا اليوم في ظلّ العولمة ينبغي أن نكسب «رهان التعايش والحوار بين الثقافات والحضارات» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 27 ماي 2004). فلا يمكن لمحلل الخطاب أن لا

يقف على تعداد سيادة الرئيس لبعض أعلام البلاد ومفكريها من أمثال القديس أوغسطين والإمام سحنون والعلامة ابن خلدون والمصلح خير الدين وشاعر الحرية أبي القاسم الشابي والمفكر الاجتماعي الطاهر الحداد (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 22 جوان 2000) أو الإيذان بالاحتفال بالذكرى المائوية لوفاة العلامة ابن خلدون (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 27 ماي 2004). إنّ هؤلاء لا ينتمون إلى عصور مختلفة فحسب بل إلى ديانات مختلفة ورؤى فكرية متنوعة ممّا يعطي للتمثيل بهم بعدا كونياً إنسانيا شاملا من جهة ويؤكّد بنوع من ضروب الاحتجاج بالسلط (argument par autorite) على حدّ عبارة ذكرو تربة نفسية وفلسفية لمفهوم الانتماء والهوية يجعلها بالقوة هويّة منغرسة ضمن الانفتاح ساعية إليه في الآن نفسه.

3ـ إدماج الثقافة في النسيج الإقتصادي

ـ الميزة الثالثة من ميزات الخطاب الثقافي للتحولّ هي إدماج الثقافة في النسيج الاقتصادي، في المستوى اللغوي الاقتضائي تلحظ الحديث عن «الإنتاج الثقافي» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 27 ماي 2004) وعن «الصناعة الثقافية» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 9 جوان 2001) وعن اتاحة تعدّد الهياكل المسرحية لفرص التشغيل أمام الكثيرين من خريجي المعهد العالي للفن المسرحي (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 29 ماي 2006) وعن «توفير مسالك توزيع جديدة للإنتاج الموسيقي الوطني» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 29 ماي 2006). هذا في المستوى الاقتضائي أما في المستوى المرجعي الصريح فخطاب التحول يؤكد أنه في ظل طغيان اقتصاد السوق على عصرنا فإننا نحرص في تونس على تكريس المعادلة بين دور الدولة ومسؤولية الأفراد والمبادرة الخاصة» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 9 جوان 2001). ويبلغ الخطاب حدود الصريح المباشر إذ يقرّر سيادة الرئيس «إن الثقافة في عصرنا عامل تنمية وإنتاج... ولاشك اليوم أنّ الإشعاع الثقافي لمجتمع ما يفرز الاهتمام به والإقبال على سلعه ومنتجاته» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 16 فيفري 1998).

هذا كله يفيد أن الثقافة جزء من النسيج الاقتصادي إمّا بشكل مباشر باعتبارها صناعة ثقافية أو بشكل غير مباشر باعتبارها واجهة للمجتمع ترغّب في الإقبال على سلعه ومنتوجاته.

على أنّ هذا التصور للثقافي الذي يجعله صناعة ويتعامل معه من منظور «رأسمالي» (بالمعنى الفلسفيّ للكلمة) لا يحجب رأس

المال الرمزي Le capital symbolique (وفق عبارة بورديو) الذي يتمتع به المبدع، فـ «المثقف (كان) وما يزال مصدر إشعاع في محيطه، وكان له دائما تأثير بارز في التحولات الكبرى التي شهدها التاريخ (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 9 جوان 2001)، وخطاب التحول يؤكد ضرورة «الاحتفاء بالثقافة وتكريم مبدعيها» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 16 فيفري 1998).

فإذا نظرنا في الوجوه الثلاثة التي اخترناها مثيلا لفلسفة الخطاب الثقافي للتحول وجدناها قائمة على الاتساع والشمول (توسعة في مجال الموضوع الثقافي (أنواع مختلفة / امتداد الفاعل الثقافي (عدد) / اتساع الفعل الثثقافي (نوع، إجراء وتصوّر) - امتداد إطار الفعل الثقافي بين التراث والمعاصرة بما ينشىء هوية متفتحة تمح إلى الكونية - شمول الفعل الثقافي البعد الإقتصادي المادي والبعد القيميّ الرمزي).

(توسيع الموضوع والمشاركين : الفعل الثقافي للكل / استشارة الفاعلين الثقافيين : الفعل الثقافي بالكلّ / الجمع بين الهوية والمعاصرة : الفعل الثقافي في سياق الكلّ / الجمع بين البعد الاقتصادي للثقافة وبعدها الرمزي : الفعل الثقافي من أجل الكل).

انطلاقا مما سبق يمكن أن نسم هذا الأسّ الفلسفي بعدم الإقصاء إذا أردنا تعريفه سلبا وبالشمول أو الكلية (holisme) إن أردنا تعريفه ايجابا. والكليّة تصوّر فلسفي يرى أنه لا يمكن فهم الاجزاء بمعزل عن الكلّ.

وإننا نود أن نثبت فلسفة الشمول هذه بوجه آخر هو الوجه اللغوي الصرف باعتبار أن بحثنا في مجال الخطاب فإذا بنا نجد هذا الخطاب الثقافي جامعا بين وظائف القول جميعها لا يقصي أيّا منها، فهو خطاب قائم على المقتضى (presupposition) أي على ما هو من ضرورة الخطاب، وهذا شأن تعداد مجالات الثقافة دون التعريف بها وهذا شأن الحديث عن صناعة الثقافة) وهو خطاب قائم على الأعمال اللاقولية التي تنشىء الواقع بالكلام (الإنشاء الإيقاعي أو غير الطلبي عند البلاغيين العرب) وليس هذا بغزيب عن خطاب المؤسسة التشريعية العليا في البلاد ومن هذا أن يتكرر فعل «نأذن» أو «أذنت» أو فعل «قررنا» أو فعل «نعلن» محيلا على إجراءات شتّى شأن الاستشارات أو بناء مدينة الثقافة أو تخصيص اعتمادات مالية أو الترفيع التدريجي في ميزانية وزارة الثقافة أو انطلاق البث بالإذاعة الثقافية أو بعث مركز وطني للترجمة. وهو خطاب قائم على الأعمال اللاقولية التي تدعو إلى تغيير الواقع (الإنشاء الطلاّبي) باعتماد الأفعال الإنجازية وطرازها فعل أدعو : «أدعو إلى وجوب الارتقاء بصناعة الكتاب الثقافي في بلادنا» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 22

جوان 2000)، «أدعو في هذا السياق وزارة الثقافة والمحافظة على التراث إلى مزيد العناية بالمهن الفنية ولا سيما المسرحية منها والسينمائية والموسيقية (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 2 جوان 2007).

وانطلاقا من الشمول والاتساع مجسما في اللغة نلج مجال العلاقة بين الفعل والقول. فخطاب التحول الثقافي إمّا يصنع باللغة إجراء ضمنيا (المقتضى) أو يصنع باللغة إجراء فعليا (الإنشاء الإيقاعي) إجباري داخل الخطاب) أو يفتح باللغة مجالا لتغيير الواقع (الإنشاء الطلبي) (اختياري بين اللغة والواقع).

أن تصنع اللغة أو أن تنشىء يحيلنا ضرورة على مجال الفعل، على مجال الانجاز أي على مجال الواقع باعتباره مرجع القول اللغوي ممّا ستوضحه لاشك سائر المحاضرات. أما الحديث عن الأهداف فإنّ أيضا ممّا يندرج في إطار الخطاب (تهمنا الأهداف كما يرسمها الخطاب لنفسه). فإذا كانت فلسفة الخطاب الثقافي للتحول قائمة على الشمول وعدم الإقصاء فإن هدف هذا الخطاب واحد ذو تجليّات متعددة. هذا الهدف هو التنمية بجميع وجوهها : «ربطنا بين الثقافة والتنمية في كل الميادين» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 22 جوان 2000)، ولهذه التنمية وجوه : - تنمية الحسّ الديمقراطي والمدني لا فحسب بتوسيع مجال الممارسة الثقافية وضروبها ولكن أيضا بتقريب الثقافة من المواطن حيثما كان (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 22 جوان 2000)،فتصبح من حقوق الأنسان - تنمية الاقتصاد الثقافي ومن تنمية الاقتصاد الوطني، بخلق مواطن شغل متصلة بالمجال الثقافي وبجعل المجال الثقافي واجهة للمجتمع ولإمكاناته الاقتصادية - تنمية الوعي الثقافي : الوعي بقيمة الثقافة بما يجعلها «أداة للتحديث وأرضية لترسيخ السلوك المدني والتأسيس للديمقراطية وغرس مبادىء حقوق الإنسان (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 22 جوان 2000).حاولنا أن نقف على فلسفة الخطاب الثقافي للتحول وأهدافه. الفلسفة شمول وعدم إقصاء والهدف واحد شامل هو تنمية في كل الميادين تهتم بسعادة الفرد وبنجاح المجتمع (الفردي والجماعي : يحيلنا على الشمول مرة أخرى).

ما هي دلالة هذا الشمول فلسفة وهدفا ؟ يقول سيادة الرئيس : «الثقافة في نظرنا حركية لا تتوقف وتوق مستمر نحو الأفضل وبحث دؤوب على الاكتمال لا تقنع بما كان ولا بما هو كائن» (خطاب سيادة الرئيس بمناسبة اليوم الوطني للثقافة 16 فيفري 1998).

إن الخطاب الثقافي للتحول خطاب يسعى إلى الكمال وينشده، واعيا بأن الكمال مستحيل

وواعيا في الآن نفسه بأن مجال الفعل البشري هو التّوق نحو الكمال، هو في الحدثان (processus)، هو في الشّوق إلى غائب منشود يحرك كلّ أفعالنا ويكسبها قيمتها، وبذلك يخرج هذا الخطاب من مجال السياسيّ البرغمائي ومن ثمّ المقاميّ أو التاريخي ليلج بابا أوسع فيغدو خطابا يتجاوز المقامات المتحولة ويكتسب سمات ضروب الخطاب الأخلاقية الإطيقية الكبرى التي يكون منطلقها وغايتها الإنسان مهما يكن وأينما يكن.

نقد أدبي

محمد زيد شاعرا وناثرا

بقلم : أحميده الصولي

مدخل :

قد يتبادر الى الذهن، عند قراءة هذه المداخلة، أننا سنتناول جميع ما أنتج محمد زيد (رحمه الله) شعرا ونثرا، الاّ أنّ هذا غير ممكن خاصة حين نعلم أن ما خلفه لم ينشر إلا بعضه، وأن المناسبة لا توفر الوقت الكافي لدراسته، ولا حتى لمجرد عرضه العرض المناسب. لذلك ارتأينا أن نقدم محاولة قراءة نريدها مدخلية لتجربة هذا الشاعر، من خلال عينة من أعماله اجتهد الساهرون على الثقافة في مدينة الجم في جمعها وتوزيعها مصورة، حتى تكون فاتحة لعمل نأمل أن يسهم في التعريف بما أنتج الرجل شعرا ونثرا، ولكي يتوفر للباحثين والدارسين رصيد كاف من إنتاجه، يمكنهم من تصنيف آثاره، ودراسة الأغراض التي توزعت عليها. وفي قراءتنا المدخلية هذه، نتناول ثلاث نقاط، وهي :

ـ ملاحظات ومقترحات

ـ محمد زيد شاعرا

ـ محمد زيد ناثرا

أولا : ملاحظات ومقترحات :

دأبت دار الثقافة بالجم على إقامة هذه التظاهرة (وهذه دورتها الثالثة) تحت عنوان : «ملتقى الشاعر محمد زيد»، احتفاء بهذه الشخصية الأدبية، وبانتاجها. وقامت بجمع جزء مما نشر من أعماله، ودعت الدارسين إلى النظر فيها وهي مخطوطة، وهذا عمل لابد من تثمينه والشدّ على أيدي القائمين به، خاصة إذا علمنا أنه لم يكن متاحا لنا قبل هذا الجهد، معرفة من يكون الأديب محمد زيد، وما هي أعماله. وفي اعتقادنا فإن الوقت حان للقيام بما يلي :

ـ تنظيم وتبويب ما تمّ جمعه من مخطوطات، إضافة لما هو منشور، وإعداده للنشر.

ـ العمل على نشر أهم الأعمال ـ إذا لم يكن ممكنا نشرها جميعا ـ حتى لا تبقى الدراسات المنجزة رهن الاحتمال، باعتبارها منصبة على هذا الجزء أو ذاك من أعماله، دون البقية، وبالتالي تكون غير موثقة بشكل تام ومنهجي، مما يحول دون الخروج بنتائج يتأسس عليها البحث المفضي إلى نتائج يمكن اعتمادها، وتكون منطلقا للأبحاث الموالية.

وإذا علمنا أن جل ما خلّفه الشاعر محمد زيد مازال مخطوطا، وأن من بين قصائده ما لم ينشر إلا جانب «منتقى» منها(1)، وأخرى لم

* نص المداخلة التي شارك بها أحميدة الصولي في ملتقى الشاعر محمد زيد بمدينة الجم أيام 25 و26 و27 ماي 2007.

تنشر كاملة(2)، وهنالك قصائد أخرى بامضاءات مختلفة، مثل (أبو صرخة)(3). فإن ذلك يدعونا إلى التريث في إصدار الأحكام حول مدونته، حتى يتم جمع وتبويب كل آثاره كي يتيسر الاطلاع على النصوص كاملة، لتكون النتائج التي يتوصّل إليها الدارس ممكنة، ولتكون النصوص، شعرا ونثرا، مرجعا للجميع الدارس والقارىء على السواء، كما نعتقد أيضا أن هذا الأديب ناثر بامتياز ولابد من البحث في ما خلف من مخطوطات، وفي صحافة القرن العشرين عن النصوص النثرية، التي في حوزتنا أربعة نماذج منها، وهي : «عن الفكر» و «عن النظر والحكم» و «قال لي القفر» و «الحياة»، تقول هذه النصوص إن للأديب محمد زيد قدرات لافتة في هذا الخصوص، وبالتالي أصبح الاهتمام بهذا الجانب ملحا، بحيث قد تمكننا نتائجه من الوقوف على الجانب الآخر من هذه الشخصية الأدبية، فلا يطغى جانب الشعر على الجانب النثري.

وثمة نقطة هامة يتعين التنبه اليها، وتتمثل في أن الدراسات المنصبة على النتف أو النماذج لا يمكن إطلاق أحكام بالاعتماد عليها، مهما كانت بسيطة. فعندما يقال مثلا : إن التجديد في شعر محمد زيد يتلخص في نقاط منها : «البعد عن قول الشعر وفق الأغراض المتعارف عليهافلا مدح ولا هجاء ولا رثاء...(4)» ومن هذه النقاط أيضا : «لم تصادفنا في أشعار محمد زيد عبارة هجينة أو مهجورة(5)»، هو قول غير دقيق ولا يصمد أمام عديد النصوص التي جاءت وفق أغراض مختلفة، وذلك مما يؤكد أنه لا يصح إطلاق الأحكام العامة من خلال نتف قليلة ومحدودة، قد لا تعكس توجهه الصحيح، فتنشغل الدراسات بمعالجة ما حصل من التناقضات. لذلك نرى أن نشر أعماله، سوف يحد من ظاهرة إصدار الأحكام المتسرعة على انتاجه(*).

كما يتعين شرح كثير من العبارات النادرة الاستعمال أو المهجورة التي استعملها الشاعر، ومنها التي قام بشرحها بنفسه، وهو محق في ذلك، باعتبار أن اللغة أداته الإبلاغية، وشرحها يساعد على فهم خطابه الأدبي، وبالتالي تتحقق الفائدة منه.

هذا فيما يتعلق بانتاج الأديب محمد زيد، أما فيما يخص التظاهرة فهي مرشحة لكي تتعرض إلى ابداعات تونسية أخرى، ويكون رمزها «الأديب محمد زيد» وجزءا منها في كل دورة، حتى لا تداخلها الرتابة والتكلف، وقد تصبح مجالا لإعادة ما قيل بأساليب مختلفة، فتضطرب المواقف حول الجدوى من إقامتها.

ثانيا : محد زيد شاعرا :

عند قراءتنا لبعض أعمال الشاعر محمد زيد ندرك بيسر أن شعره يتمحور حول القضايا الاجتماعية والتاريخية والحضارية والسياسية، وينصب جانب منه على معالجة المشاكل الحياتية والمعرفية عموما. وأي شعرهذه مواضيعه، إنما هو شعر أملته

أغراض، وحرّضت عليه مشاغل المجتمع وهمومه، وهي مجالات عرف بها الشعر العربي، منذ نشأة الثقافة العربية، ولا تزال امتدادتها في كثير من الأشعار حتى اليوم.

تتمركز أعمال الأديب محمد زيد، من خلال النماذج التي اطلعنا عليها، في مجالين اثنين يمثلان عصب الحياة الأدبية العربية، وهما : الشعر والنثر. والشعر في أعماله من حيث الكمّ، أكثر من النثر. ولكننا سنحاول ملامسة شغاف هذه التجربة ونبدأ باغراض الشعر لديه.

1) الأغراض في شعر محمد زيد

ينقسم شعر محمد زيد إلى مجالين إثنين هما :

- شعر المناسبات
- شعر الهموم الحياتية والفكرية

أ) شعر المناسبات :

وهي القصائد التي تنظم في إحدى المناسبات، وفي كل منها يتناول الشاعر الأغراض التي شغلته أثناء تجربته الحياتية، ويمكننا الإشارة اليها في عناوين وهي : المدح، والرثاء والتذكر، والعتاب، والهجاء، والوصف، والوعظ والإرشاد، والأحداث السياسية. ونعرض لنماذج منها لاحقا.

نورد في ما يلي عناوين بعض القصائد حسب الأغراض كما يلي :

المديح : - حياك أكرم شعري - يوم الضيغم

الهجاء : نصيب الظلام

الرثاء والتذكر : - رجفة دامية - من حديث النجوى - وفاة الضيغم - في ذكرى ابن باديس - عميد الشعر في العراق والوطن العربي - عام مضى - هكذا تنتهي - الشيخ محمد الفاضل بن عاشور - من فيض دمعي - ذكرى لا تنمحي.

الوصف : أمام البحر

السياسة : الحدث التاريخي.

ب) شعر الهموم الحياتية والفكرية

أما شعر الهموم الحياتية والفكرية فتعترضنا فيه قصائد محورها : الحكمة، والمعارضات، والمجاملات. نورد في ما يلي عناوين بعض القصائد وفق الأغراض المذكورة :

الحكمة : إلى الأخ محمد فكري - هي الدنيا.

الزهد : - العمر القفر - الحقيقة.

المعارضات : - هون عليك فللعروبة وقتها (يعارض بها نزار قباني).

المجاملات : - طرابلس للخضراء أخت - في مهرجان التكريم.

هذه بعض النماذج من كل غرض نؤكد بها على أن نسبة كبيرة من شعر محمد زيد مبنية على تلك الأغراض، وهو مما يدعم اقتراحنا الحاثّ على ضرورة جمع أعماله، كي تتم قراءتها القراءة التي تحدد معالم هذه التجربة، وبالتالي تتضح اتجاهاته كشاعر كتب، لا للتسلية، وانما سعيا إلى تحريك ما سكن من الهمم، وليعبر عن آلام تنغّص عليه صفاء عيشه، ونقاء ذهنه. ولينشد للحياة والإنسان الحانه القدسية.

2ـ لحظات مع شعره

يضمّن الشاعر محمد زيد قصائده، في مختلف الأغراض، نبضه الدافق شعرا، وهو إذ يتناول الأحداث/الأغراض، انما ليفجر إحساسه بها، وليرفعها لافتات تتوهج ألما وحسرة وخوفا على الإنسان، لذلك يحقّ له أن يدعى «شاعرا إنسانيا» انطلاقا من عروبة توجهه وأفكاره.

في خطابه للآخرين يبرز الأدواء التي تنخر واقعهم، والأمراض التي تعشش في حياتهم، معلنا الحرب عليها وعلى الجمود الذي يخيم عليهم، شاجبا وقوفهم الموقف السلبي منها. وأحيانا يطرح بديلا لما هم فيه، حيث يعتقد أن فيه خلاصهم، أو أنه الحقيقة الي لا محيد عنها. وهذا الأسلوب اتبعه في كثير من أشعاره، حيث نراه يستحضر التاريخ والأخلاق والدين والأحداث المناقضة لما يرزحون تحته من مهانة، عسى أن تتأجج فيهم جذوة الإحساس بالضيم، فيهبّون مشهرين إرادة اجتثاثها، والقضاء عليها، حتى يتغير ما بحالهم.

إن الشعر عند محمد زيد ليس تهويما في الفراغ، واستدعاء لكلام مزركش يجلله الغموض ويفضي إلى اللاشيء. فالشعر عنده بما هو وعاء لغوي، منتقاة عباراته وفق سياق الحالات، ومبدعة صوره، يبني ويصوغ به الشاعر أفكارا ودلالات تستبطن موضوعا أو قضية أو فكرة أو أيّا مما يشغل الشاعر، وتكون له امتدادات في حياة مجتمعه أو من يخاطبهم بصورة عامة. كما أن الشعر عنده ليس تلهية أو قتلا للوقت، تماما مثل كل شيء يباشره الإنسان السوي، لا بد أن تكون لنتائجه فائدة ما.

2ـ1 : نماذج من شعره

فيما يلي بعض النماذج التي اقتطفناها من بستان الشاعر محمد زيد، في محاولة لاستكناه مناخه ومدى التصاقه بواقعه. يقول في قصيدة «أين صداه؟» :

لحنك المفعم بالقدس أين صـــــداه ؟
أين ظلّت غنوة الخـلد بـه أيـن شذاه ؟
أيـن ما يحـدوك للنور بـه أيـن سناه ؟
أيـن فيه اليقـظة الحرّى، يذكيها لظاه ؟
أين فيه الروح مشبوبا، وما منك شجاه ؟
هل توارى الكل عن دنياك؟ أم ماذا دهاه ؟
لحـنك المفعم بالقدس ترى أين صداه ؟

يذكّر الشاعر الفرد بما وهبه اللّه من النعم التي منها الإرادة وقوة العزيمة، ويعجب لماذا هو خامد لا حراك فيه؟ فيستحثه، تماما مثل ما فعل الشابي في قصيدته : «يا ابن أمي» مع بعض الاختلافات. وهو ما يشير إلى أن الجيل الذي عايش الاستعمار كان مهموما بإذكاء جذوة الحياة الحرة الأبية، حيث يثير فيه الواقع أسئلة كلها تصب في أن ينهض الفرد والجماعة لتغيير حالهم من العبودية إلى الحرية.

وهو هنا مثل أبي القاسم الشابي مرة أخرى، يثور على تلك الحال وأهلها، ولكن محمد زيد لم يصل إلى الدعوة لاجتثاث الجذوع مثل أبي

القاسم الشابي حين قال:

أيها الشعب، ليتني كنت حطابا فاهوي على الجذوع بفاسي
ليت لي قوة الأعاصير يا شعبي، لألقي اليك ثورة نفسي

بل قال في قصيدته «وهذه صرخاتي»:

أنا بالشعر ما أغني لروحي
بل لأرواحكم صدى غنواتي
أنا عفت الحياة يغمرها الذل
ويسعى بها لعاب الوشاة
ليت لي من جهودكم قوة العالـ
ـم أسطو بها على الويلات
لأغني وفي فمي ألقُ النور
وفي مهجتي ضياءُ الحياة

ويؤكد ذلك في قصيدته «دوي الحق» التي يبرز فيها خاصة أن الشعر لديه سلاح يقاوم به أدواء المجتمع حيث يقول:

هجرت الشعر أياما طوالا
ليأسي من أخٍ يزنُ المقالا
فأرجعني إليه هوى غلوب
وما قد عشته بصراً وحالا
وقائع من بنات الدهر سود
وحمر، ما أطيق لها احتمالا

ويعدد الشاعر تلك الوقائع التي منها: الكفر بالحق - وتسخير العلم للدمار والقتال - والمكر. ويختم:

ألا يا قوم ان دويّ شعري
دويّ الحقّ بينكم تعالى
فهبوا وانصروا حقّا هضيما
وإلاّ خاب سعيكم مثالا

فقد تمنى الشابي تسخير قوة الأعاصير ليوصل إلى شعبه ما يضطرم في نفسه من طموح للحرية والخلاص، وتمنى محمد زيد أن تتكون من جهود أبناء شعبه قوة العالم كي يسطو بها على الويلات.

لنصغ الى شاعرنا يخاطب «الريح الثائرة» في قصيدة تحمل هذا العنوان:

أنت يا ريح، وقد ثرت، وثارت غبراتك
وتورمت ودمدمت وعجت نسفاتك
وتوثبت وقعقعت وصلت فلتاتك
أترى أشجتك الحاني، فهذي رقصاتك؟
أم تألمت لآلامي، ففاضت زفراتك؟
وتألبت على أرضي، وحلت نقماتك؟

وفيها يقول أيضا:

هومي بالويل يا ريح فبالويل حياتك
هومي في معبر الدهر فدنياي صفاتك
فاسحقيها، فلقد مردها منك مواتك

كما يقول في نفس القصيدة:

أنت لي يا ريح إيقاع، وفنّى نزواتك

ليختمها بالقول:

أنت لي، لو يعلم الناس، تغني قبلاتك.

ويقول في قصيدة بعنوان «أمام البحر»:

فاتن أنت، كالحياة، كالنور، كالحسن، كالربيع المنمّق
كشعاع العيون في نظرة الحب، كالسحر، كالرحيق المعتّق
كمعاني الوجود في قدسها السامي، وفي كنه ما بها من تعمق
كحسيس الإلهام، كالرقصة الجذلى، وكالطهر في الهوى المتوثق
أنت يا بحر رائع، فاتن، حياك كون في عالم النور مشرق

وهذه القصيدة أيضا تحمل من عناصر التقارب

بينه وين الشابي، كما في قصائد أخرى، وهو ما يهيىء لدراسة مقارنة بين شعريهما مستقبلا.

يستعرض الشاعر محمد زيد - في خطابه للآخرين - كثيرا من الأدواء والأمراض التي تنخر كيانهم، منبها إلى خطورتها، ولعله يطرح - مثلما تقدم - ما يراه البديل الأنسب لحياة البشر. وهذا الأسلوب اتبعه في عديد القصائد. حيث يستحضر التاريخ والأخلاق والدين والأحداث ليضع نتائج تعاليمها أمام مخاطبيه علهم يرتدعون فيكفون عن غيهم.

ونشير أخيرا إلى أن الشاعر محمد زيد تغنى بتونس مثل كل شعرائها المخلصين، وما الشابي - برغم تفرد صوته - إلا واحد منهم. وما مخاطبو محمد زيد في شعره كله إلا أبناء تونس أولا ثم العروبة بصورة عامة حتى يعبر إلى الإنسانية قاطبة.

III – النثر عند الأديب محمد زيد

تنصبّ النماذج الأربعة التي بين أيدينا على القضايا الفكرية والوجودية، من منطلق فلسفي يستخدم الخيال والتأمل أداة لبلوغ ذلك. وهذا ما يجعل النثر يتجاوز غاياته الثلاث باعتباره أداة تواصل وإخبار وتوثيق. فهو عند محمد زيد خطاب أدبي يستند إلى قاعدة يمزج فيها بين العقل والخيال حينا، ويتزيّا بزي المرشد المنبّه إلى ما يحوط الكائن من قضايا معرفية وفكرية أحيانا.

ومعلوم أنه منذ الجاحظ، اتّسم النثر بشيوع النزعة العقلية فيه، مع زج للقضايا الفكرية الموشاة بمظاهر الإيقاع وهو ما جرى عليه الأمر عند محمد زيد تأكيدا على أن الفهم السائد له تشعبات يذكر بعضها وينبّه الى ما انحرف من ذلك الفهم، باعتبارها تصبّ حتما في نفس النتيجة لأن حقيقتها واحدة. ويرسل واحدة ويرسل محمد زيد القول إرسالا دون الاتكاء على أي محسن بديعي، كأنما يرصد أخطاء يعلن موقفه منها، ولكنه قد يتكىء أحيانا على الإيحاء والرمزية.

أما طرق التشكيل الفني التي اعتمدها محمد زيد في نثره، فتستند أساسا إلى اللغة والتصوير وحتى الإيقاع أحيانا.

1) **اللغة :** يتوسل الأديب محمد زيد بلغة ذات ايحاء، تحيل قارءها على أبعد من الآن، لذلك يبدو قادرا على التأثير فينا برغم فاصل الزمن. كلماته جزلة دون تعقيد، بامكانها أن تعكس ألمه أو انشغاله، ومن السهل أن «ندرك أن الجمال الكامن فيها منبعه مفردات سهلة بلا ركاكة، جزلة - أيضا - بلا إغراب، قادرة على تحديد ما يريد تقريره من المعاني والآراء. مع أن نصوصه تتّسم - في جانب كبير منها - بشعرية اللفظ والمعنى، وهيمنة للخيال على جانب من وسائل التشكيل الفني.

ويتكيء محمد زيد - شأنه شأن أدباء عصره على روافد تراثية من بينها القرآن والحديث والشعر العربي والأمثال والحكم، متخذا من الاستيحاء أسلوبا أساسيا لبلوغ ما يريد.

2) **الصورة** : عمل الشاعر محمد زيد على توظيف الخيال في مواقع من نثره، يصبغ به آراءه ومواقفه، مخترقا بواسطته الحقول الدلالية، حتى تنصاع اليه ويبدع بواسطتها.

فهو يستخدم التشخيص والتجسيد والتجريد حسب الحالة، ويتعداها إلى ماندعوه اليوم بـ «تراسل الحواس»(6)، فنجد وصف مدركات حاسّة من الحواس بصفات الحاسة الأخرى.

3) **الإيقاع** : يستخدم السجع تارة، والازدواج تارة أخرى، والمزج بينهما أحيانا. وقد لا نجد من ذلك شيئا في مواقع عديدة، حيث نجده يرسل القول إرسالا، دون الالتجاء إلى المحسنات البديعية، سواء في الألفاظ أو في المعاني.

وتتميز النماذج الأربعة التي لدينا، بأن صاحبها يتوفر على قدرة استشرافية تستنكه أعماق الثقافي المعرفي وتدفع اللغة إلى قول ما خفي في اللاوعي من خلال تحريك المكتسب المعرفي. لذلك يزيد الاعتقاد لدينا أن هذه النصوص لا يمكن أن تكون كل ما خلّفه الأديب محمد زيد.

وكما أشرنا من قبل، فقد اعتمد طرقا للتشكيل الفني ذات أبعاد ورموز أحيانا ودلالات موحية، فإذا القفر يكلمه ساردا أهم عناصر الموضوع في نماذجه : «قال لي القفر» و «عن النظر والحكم» و «عن الفكر» فيكون دوره هو استخلاص العبرة في النماذج الثلاثة المذكورة، ويختمها برأي يقوم مقام الفصل في ما تم طرحه. أما النموذج الرابع بعنوان «الحياة» فيتولى هو استعراض الموضوع مفصّلا إياه إلى عناصر وحالات وأفكار، ايجابا وسلبا، ليخلص إلى عبرة يسديها هو إلى المتلقي.

ختاما، لا ندّعي أن ما توصلنا اليه أو استنتجناه أو أشرنا اليه يقوم حقائق ثابتة في أدب محمد زيد، ذلك أننا لم نطلع على البعض مما انتج، وإنما هي إشارات إلى كلّ ما تتضمنه آثاره من الخصائص التي لا تقبل الآن، موقف الجزم، بقدر ما تهيؤ إلى تبوىء وضع المستفهم المتحفز للانطلاق باتجاه مدوّنة محمد زيد الأدبية.

الهوامش :

1) في الأدب اليوم (قصيدة)

2) قصيدة «الحقيقة» تجد أسفلها عبارة «يتبع» كدليل على أنّ ما نشر هو جزء منها وليست كاملة.

3) قصيدة من حقائق اليوم بامضاء أبو صرخة.

4) محمد المي - مجلة المنتدى - العدد الثاني - 2006 - ص 24.

5) المرجع نفسه (ومن العبارات المهجورة التي استعملها الشاعر كلمة (قرزم شعره) أتى به رديئا، كما شرح عبارات غريبة أو مهجورة في قصائد أخرى.

(*) سعى الصديق الحبيب بن فضيلة إلى نشر كتاب بعنوان محمد زيد حياته وشعره ضمن سلسلة ذاكرة وإبداع الا أن النصوص التي كانت بحوزته (30 قصيدة) لم تكن كافية وحين طلب المساعدة من طرف إبن أخ الفقيد لم يجد التجاوب الفعلي والمساندة.

قراءة في شعر سامي البيداني

سيمياء الجسد / إيحاء القصيد

بقلم : شرف الدين بوغديري

تتكون مجموعة «عشبة المعنى» للشاعر سامي البيداني من مقاطع قصيرة أو شذرات يسميها أهل الأدب والنقد «قصائد الومضة» وقد جاءت مقسمة إلى فصول ثلاث : كتاب الجسد / عشبة المعنى / نباتات الهواء وعربات المنحدر / وتتخللها مقاطع ذات أغراض متفرقة ولكن تجمعها وحدة في نمط الإيقاع : إيقاع القصيد الومضة ويمكن للقراءة المتأنية أن تنير السبيل إلى تفكيك هذه القصائد تفاعليا وتبعا للمقاصد الشعرية التالية : مقصد الجسد الهيكل / مقصد الجسد الشغل / مقصد الجسد الروح وجسد آخر مسكوت عنه هو جسد الآخرين. لكن لماذا مقصد الجسد بالذات؟ أليس هو من باب المقاصد المحدثة؟ وقد يعدها البعض المبتدعة؟ ما هي مرجعيتها؟ هل هي مرجعية تقليدية أم مرجعية حديثة؟ وفيما يتمثل مقصدها من حيث هو مقصد الإيحاء ؟

I ـ الجسد الهيكل

لا يمكن أن نعد اختيار عنوان الفصل الأول من المجموعة «كتاب الجسد» من باب الاعتباطية وانما هو اختيار مقصود ومعبر عن نفاذ رؤيا وقد يكون مستوحى من مرجعية تصوف الأوائل أو من مرجعية التصوف الوجودي الراهن كما يتبلور لنا في أعمال أدونيس انطلاقا من مرجعيات فلسفية حديثة نظرت للجسد باعتباره محورا لكينونة الإنسان وبديلا للمقولات المدرسية التي تتمحور حول تعريف الانسان ككائن عاقل. إنّما يباغتك من خلال قراءة هذه المقاطع تباعا هو هذا التفكيك السيميائي لفضاء الجسد المتهالك يوميا وأعضائه وقد تحول في فضاء هذه المقاطع إلى قوام محوري أو نقطة ارتكاز لكل الهواجس والمعاني. لقد تحول إلى فضاء سيميائي وتعبيري بحق، محوره اتهامات الإنسان المتعب والمهووس يوميا في عزلته أو ضمن مدارات تواصله ومن حيث هو كذلك يتحول من هيئة التماسك الصلب الى هيئة التهالك والتفكك.. والى هيئة الهيكل العظمي باعتباره بنية أو خواء يفتقر إلى معاني أو إلى عبرة أو إلى مقصد. يقول الشاعر :

« في أكثر الليالي
تؤول غرفتي
إلى قبر
يخرب داخلها
نمل الهواجس جسدي
والذي يغادرها فيا لصباح
ليس سوى هيكلي العظمي»(1).

وفي مقطع موال يتمثل لنا الجسد وقد عاد إلى تماسكه اليومي المتجسد في «كتلة طين» لتبتلعه أغوار الشوارع وأبعاده العميقة المفضية إلى «حوض الليل»، «حوض الانحلال والتفكك»(2)، حيث يصبح من جديد لقمة للهواجس والوساوس داخل قبر غرفته الليلي.

ومن مفارقات التمثل في هذه القصائد الومضة أن هذا الجسد اليومي ليس جسدا مفردا على الإطلاق وانما هو جسد يحدث له يوميا أن يتحول إلى جسد مزدوج أو جسد مثناة يتولد من مرآة الذات وليس هذا الجسد الزوج لدى الشاعر إلا القناع اليومي يحمله معه للتواصل مع الآخرين. إنه جسد الذات السطح كما يقول «برجسون» وهو جسد لا يلبث أن يغتال في آخر النهار»(3)، ليعود الجسد المفرد : جسد الأنا العميقة» وحيدا إلى قبر غرفته الليلي. هذا الجسد الهيكل هو ذاته الباحث دائما عن معنى أو عن مضمون يستعيد به استقامته الظهوراتية ليتواصل مع الآخرين يوميا ثم يعود ليسقط طريحا في هذه الصحراء «صحراء المدينة» كما يعبر عنها فرنسوا مورياك متحدثا عن باريس.

II ـ الجسد الشغل :

قد يبدو للقارىء خلال المقاطع الأولى أن الجسد لا يكسبنا امتلاءه وتماسكه إلا من خلال المعنى الذي سيكتشفه أو سينحته لذاته وتبعا لذلك سيؤثث به هيكله الخاوي ولكن في الواقع هذا الجسد الهيكل من حيث هو جسد ظرفي لابد أن يجد ملأه ويجسد كثافته وتماسكه باعتباره «كتلة طين» وذلك من خلال العمل أو الشغل الدائم والباديء أبدا على شاكلة شغل «سيزيف» : انه الشغل الذي يحمل في ذاته حتفه تحت وطأة حجر الأعوام».

يقول الشاعر :

«كلما ألقيت مزيدا من حجر الأعوام
في بئر الشغل
ليعلو ماء الحياة
كان يفيض
طيف قبري المرتقب»(4).

ولما كان جسد الشغل لابد أن يعدل طبقا لعقارب الساعة أو عقارب الوقت اليومي فلقد انساق الشاعر وانصاع دون حذر لتقبل لسعات عقارب الوقت بتفاصيله الفلكية وتقبل أوجاع سأم الانتظار...

«هكذا دائما
تلسعني عقرب الساعات
ثم عقرب الدقائق

فعقرب الثواني...
لأكون بعد صرخات ثلاث
طريح هذه الصحراء»(5).

بل لنقل إن الشاعر هنا يتقمص شخصية الشغالين دون تصنع أو تكلف لا لشيء إلا لأنه خبر تجاربهم وعاناها بكل براءة وعفوية. لقد خبر سأمهم في انتظار ساعة الفراغ من الشغل والعودة إلى الذات كما شاركهم لهاثهم وراء لقمة العيش ومن أجل ضمان القوت اليومي ثم حرص على أن يحول ذلك؛ السأم وذلك اللهاث اليومي إلى نسيج مطرز من الكلمات والعبارات الجميلة ومن المجازات والصور أو ليحوله، على حد تعبيره، إلى «أحذية للروح».. «كلما قتلوا الجسد»(6) فكأننا بالقلم لديه بمثابة الإبرة التي تنسج مؤدية مهمة إنشائية في التطريز السيميائي ليحافظ على تماسك الجسد المعنوي كلما تفكك واندثر الجسد الواقعي: جسد الفأس والمطرقة.

يقول الشاعر:

«هو ذا القلم في يد
إبرة
أمرر من ثقبها
خيط لهاثي
وأخيط باستمرار
أحذية للروح
كلّما قتلوا الجسد(7).

وضمن ها السياق يتوخى الشاعر أسلوب الإيحاء إلى حالات التعب الذي يعانيه الجسد يوميا: جسد الشغل / «جسد الطين»(8).

الذي يتجلى في «أنفاس المتعبين»(9) ويتكاثف في «عرق الحطابين»(10). وأنت تواصل استلهام إيقاع هذه المقاطع تستشعر وكأن هناك تمازج أو تجانس بين جسد الشغالين ولهاثهم وعرقهم وجسد الشاعر المتسلح بقلمه وهو تارة يأخذ هيئة إبرة تطرز نسيجا وأخرى يأخذ هيئة معول أو فأس يحفر في الجسد ذاته «مغارات» كما يحفر عبر بياض الورق ويرسم أحرفا سوداء «يتبين من خلالها معالم وجهه الدفين في أعماق كينونته».

يقول الشاعر:

«أحفر في الورقة
لتتضح أحرف سوداء
هذا النمل المعرش في جسد مدفون
تحت الأبيض
برهبة أنحني عليه
لأتبين وجهه
وبرعب أتراجع عنه
لما ألقاه وجهي..(11).

III ـ الجسد المعني:

إننا نتبين منذ المقطع السابع من «كتاب الجسد» في القصيدة الأولى شبه إعلان عن مغامرة هذا الجسد من حيث هي مغادرة في سيمياء العالم والطبيعة وفي سيمياء الإنسان وهذه المغامرة ليست إلا مغامرة البحث عن

مضمون للجسد الهيكل عند انحلاله وفقدان تماسكه وعن غرض الجسد الشغل ولن يكون هذا المضمون إلا الروح والتي لابد أن تجسد ملأه الحي على الدوام ولقد تمثل الشاعر نفسه خياطا يوظف قلمه على هيئة إبرة تخيط اللهاث (لهاث المتعبين) كما تخيط باستمرار «أحذية الروح» ليستعيد الجسد في كل مرة هيئة تماسكه وقوامه المعتاد بعد انحلاله وموته اليومي ولن يكون ذلك الغرض إلا تأكيدا لحضور الذات من خلال تجسيد المعنى أو تجسيد فيض الروح ولكننا واجدون في قصيدة «عشبة المعنى» إيقاعات عميقة المدى يمكن أن نتبين من خلالها أبعادا سيميائية تبلور لنا ثراء الكينونة وثراء المعاني والرموز التي تتضمنها وإيحاءاتها. إننا واجدون أن هذا الجسد إنما هو جسد العناصر المتآلفة والمتماسكة ربّما هو كذلك فهو جسد الكثافة وجسد الشفافية. جسد الطين (التراب)(12). / وجسد العشب / وجسد الماء(13) / وجسد الريح (الهواء) / وجسد النار(14) لكن كل هذه الأجساد تكون وحدة فهي تتآلف وتتماسك وتجد قوامها في جسد النور أو جسد الفيض (فيض الرؤى) وفيض التنوير وهو ذاته جسد العناصر ومن حيث هو كذلك يحيلنا إلى مرجعية الحكماء الأوائل فلاسفة الطبيعة ومن ثمة تمثله كجسد من فيض الحكمة يستنير بنوره الآخرون.

يقول الشاعر :

«.. ماذا لو هبت الريح

هل يخبو توهجك

أم يرتمي فيك

من تحلق حولك

كي تضيء في العناصر..»(15).

ويواصل الشاعر تغنّيه في قصيدة «نباتات الهواء» بسيمياء عنصر الهواء وهو يتآلف بالعناصر الأخرى ومن خلال ذلك ينشد ممجدا تمازج وتآلف الحواس : الشم / الحس / السمع / الصوت / النظر / الذوق... كما ينشد ويمجد مسالك وسبل التنافذ بينها في الفضاء باعتباره معبرا للتواصل الشفاف... وليس هذا المعبر إلا منفذا للتنوير ولاكتشاف الحقيقة الحارقة والخارقة فهي فيض من نور الشمس ومن نور الروح ومن نور جمرة المعرفة...

.. كلما كتبت الشمس

احترقت

أصابعي والورقة

كلما نقطت حرفا

آلم الوخز

جسدي(16).

إننا ونحن نحاول أن ننفذ إلى طوابق وبنيات هذه القصائد ونخرق عتمة كثافاتها السيميائية نستشعر كأننا نتيه تصاعدا وتنازلا واندهاشا وتعجبا أمام هذه المجازات والرموز الملغزة والطلاسم المحيّرة إلى درجة

لا نكاد نطمئن للتأويل الذي يبدو أننا نهتدي اليه في كل مرة عند الانتهاء من قراءة المقاطع لولا تردد رموز محورية وتكررها في كل المقاطع «الجسد» / الظل / النور / الشمس / القمر / الحواس... / العناصر..

ولأن الجسد هيكل فلا بد أن يكون متعددا تعدد المضامين والمعاني التي تشغله وتملؤه في كل مرة أو بين الفينة والأخرى لذلك نجد الشاعر يرمز لتعدد الجسد بالجسوم الملازمة «لبدلاته المعلقة في الخزانة» وهي «تتحاور»(17) ولكن كيف يكون نزول القمر في النهر رمزا «لاغتسال الليل»(18)؟ وكيف يرمز نزول المطر لترجّل السماء»(19)؟ لا يمكن تأويل مثل هذه المجازات إلا من خلال تمثل وحدة الوجود الصوفية وهي وحدة وجود تعبر عن حلول الروح الكلي في أجزاء الكون وعناصره أو بمثابة وحدة الروح الكلي بالعناصر ونحن نبين مثل هذا الايحاء كذلك من خلال «اصطباغ الماء بكوابيس المخدة»(20) وهذا ايحاء يذكرنا بمثال شهير معروف عند الرواقيين الأوائل يوظفونه للبرهنة على وحدة الوجود ووحدة العناصر(21) فقطرة الخمر التي تلقي بها في البحر لابد أن تنحل تفصيلا في كل أنحائه وتتمازج معه كليا ويتبلور لنا كذلك هذا الحلول في الصورة الموالية : صورة «تجفف أعضاء جسد الشاعر على حبل الغسيل»(22)

ويتواصل تنوع مجازات الايحاء المتصلة بوحدة الوجود وبالحلول لتصور لنا التواصل الروحي المتجاوز للزمن الآلي وللتأريخ فها هو الشاعر يصله صدى صراخ العبيد بناة الأهرام «فيتصدع رأسه» أو يصور لنا التواصل الذوقي المتخطي للحدود الجغرافية فإذا به يستشعر لفح لهاث فلاح برازيلي «كلما قرب فنجان القهوة ليرشفها»(23) ألا يترتب عن هذه المجازات التي يبدو أنها مستوحاة من نظرية الحلول ووحدة الوجود تعدد ضروري وقدري لجسوم الجسد بتعدد المعاني والأذواق والأحاسيس والخيالات والكوابيس والأصداء... ولكن هذا العدد ليس إلا ظاهريا وهو في الحقيقة تعدد لوحدة الجسد الهيكل أو فلوحدة الجسد والروح هذا الجسد الذي تتقاطع فيه الرؤى والمعاني والأحلام تماما كما تتقاطع فيه خيالات الشوارع والمدن والجسوم وكثير من أشياء هذا العالم التي يتواصل معها ويحيا في فضائها الشاعر يوميا.

IV ـ جسد للتواصل :

إن تعدد الجسد الهيكل بما هو جسد للشغل وللتعب وللمعنى يحيل إلى التواصل والى ربط علاقات مع الآخرين سواء أكانت فعلية أو تأملية أو في فضاء الحلم كما في فضاء اليقظة بدءا بتحاور الجسد الظل مع الذات وكأننا بالشاعر عنا يستشعر تعددا لأبعاد الجسد في

فضاء العلاقات «تخارجا» عن الذات الكينونة فإذا هو يفرد عددا من المقاطع على منوال «القصيدة الومضة» ليعبر عن مدار الذات المتحجبة بالجسد الظل / الجسد القناع إلى مدار جسد التواصل وهو عبارة عن جسد يتجلى عن طريق الإيماء والإيحاء ويمتثل عبر فضاءات التخارج متهيئا لأن يكون نصا يقرؤه الآخرون ففي قصيدة «مقهى ريجينا» يكون لقاء الشاعر بالمسرحي وبالروائي ليؤلفوا معا نصا أو لوحة متعدد (ة) الأبعاد يقرؤه أو يتأملها النادل(24) وبدلة العامل البالية تتحول إلى خرق ممزقة منهجا من خلالها أبجدية عراء جسد الشغل المتعب طيلة خمسة عشر عاما(25) ويبدو أن جسد القصيد المقتطع من جسد الشاعر لا تأتي عليه الحرائق ولا تذروه رمادا، انه ينتفض قائما ومن جديد «ينكتب على الهواء»(26) ولنا أن نتمثل في قصيدة «حناء» جسدا كأنه من معدن النبتة الأفروديسية : إنه جسد العريس المحمول على أكف العرائس(27) وهذا جسد الطفولة التي ترسم شمسا تتحول في المنام إلى نهار يضيء تحت الغطاء(28). وعند اتساع مدار جسد التواصل نفاجأ بصورة مرعبة في التعامل الإرهابي مع الجسد المتحرر فحتى الاعتراف بجسد الدولة «فلسطين» يتحول الى جريمة وتبتر ذراع الأب الحنون الذي يشير في الخارطة لترى ابنته موقع دولة «فلسطين»(29) وتتعدد تمثلات الجسد لتشمل أجساد الأحياء الأخرى على اختلافها وتنوعها : أجساد الطيور في الأحلام وهي «مطرزة على الوسادة» والنحل الذي «يمتص رحيق زهرة الوقت» وينهك الجسد المتعب بطنينه» فإذا بالرحيق يتحول الى عسل مر : إنها صورة تنفذ إلى ما وراء ظاهر الحياة الدنيا / حياة اللذة والمتعة والى مرارها الدفين والمتحجب في ظلمات الجسد وفي سديمه بل عدمه ولعل هذه الصورة تحيل الى مرجعية «المرآة الجسد». يقول الشاعر :

«حطت على زهرة الوقت
وامتصت رحيقها
ثم طارت
ودارت
حول جسد منهك
أفرغت فيه طنينها
ولما انتفض وأمسكها
أساحت على يده
عسلا مرا(30).

وقد نتمثل من خلال قصيدة «شطرنج» صورة للفوضى المتحجبة في دهاليز وكواليس نظام الدولة والمجتمع المدني وهي صورة تحيلنا إلى الوعي بالتناحر والمسكوت عنه بين العوام من الناس والرسميين «البيادق» الذين هم مراقبون من قبل سلطة الملك والملكة اللذان يشربان احتفالا بالخراب وفي هذا التمثل

تعبير عن صادية السلطة المرعبة وتعبير عن انفصام التواصل المفترض علنا كغاية حتمية لجسد التواصل (الجسد الهيكل / الجسد الشغل / الجسد المعنى) : انه تواصل جسداني متخم بسوء الهضم ومن ثمة بسوء الفهم المتبادل بين الأنا والآخر في مدار المسكوت عنه ولنا في قصيدة «منفضة»(31) أن نتمثل صورة لجسد المواطن المعزول والمقهور الذي يحترق في تواصله الأفيوني مع السيجارة وينتهي بالانطفاء داخل المنفضة ويقابل هذا التمثل تمثل آخر قد يوحي لنا بالمرأة من حيث هي رمز للزهرة اليانعةة مجسدة في ظل «بائعة الزهور» وهي متنقلة في شوارع المدينة بحثا عن الرجل القذر الذي سيقتنيها قبل أن تذبل.

يقول الشاعر :

«ومع حلول الليل عادت

وفي طريقها إلى الفراش

علقت سؤالا على المرآة

من من حال الرجال يقتني هذه الزهرة

قبل أن تذبل»؟(32).

أما قصيدة «شجر المنفى» فهي تحيل إلى مرجعية شجرة الغربة (غربة الإبداع) وهي متعددة الفروع والأغصان وما هذه الشجرة في الحقيقة إلا تمثلا سيميائيا للجسد المتعدد الأبعاد الذي صوره لنا الشاعر في قصيدته «مقهى ريجينا» وهو جملة أجساد المبدعين (شعراء ومسرحيين وروائيين) يقرؤهم النادل يوميا. وها هو في هذه القصيدة يتمثلهم كطيور تجتمع على أغصان شجرة المنفى بعد أن أرهقها تعب الهجرات والمغامرات الإبداعية عبر فضاءات عالم الرؤى فتتآلف وتتآخى في غربتها أو في منفاها وتستقر في أعشاش من حروف «تحلم بأوطانها المفتقدة» وليست أوطانها هذه إلا مدنها الفاضلة. ولكن تمثل الجسد عريا لدى سامي البيداني لا يبقى مقتصرا على الجسد المفرد أو على الجسوم المفردة وانما هو يتمدد ويتعاظم ويتضخم ليصبح مجانسا أو مضاهيا لجسد العالم بل الجسد الكوني فاذا به يكتسب طاقة وقدرة سيزيفية على تحمل ارهاصات وأصداء حروب العالم وكوارثه التي لا تنتهي إلى حد أخير أو أقصى. ففي قصيدة «سيناريو الحرب المتكررة» يعمد الشاعر الى تجسيد ايقاعات التعاطف والتواجد الجسداني مع العالم والكون والحروب تخرب عمرانه والكوارث تدمر معماره ونظامه المتوازن وتلوث مناخه الخام فإذا بجسده يتماسك ويتآلف أمام هذا الخراب وهذا الدمار بما هو صدى لعود أبدي يتحمل كل ارهاصاته وصدماته.

يقول الشاعر وهو يتمثل شوارع المدينة في شكل الضلوع :

«كل ليلة حين أدفع باب الغرفة

بعاصفة من صراخ قدمي

جابت كل أزقة الضلوع
حيث ازدحام المتعبين
الذين أحبهـــــــم
وأرتمي فوق الفراش
لأستدرج النوم
إلى مراتع النسيان
يفرغ العالم عواءه في رأسي...»(33)

ولكن هذه القدرة التي تنبعث كل يوم في «جسدانه» من جديد هي في الحقية قدرة يستمدها الشاعر من الينابيع الثلاثة للجمال التي تجدد شباب الإنسان وهي الينابيع التي ذكرها الجاحظ في «البيان والتبيين» (الخضرة / الماء الصافي / والوجه الحسن) وبالفعل كأننا نجد في هذه المقاطع إحالات لطيفة إلى هذه الينابيع. فالشاعر «يفتح النافذة ليدخل سرب الهواء.. فيرى ملكة الأقمار الحرينة»(34) وهي تقذف بنجوم همها المقدس في البحر»(35). كما يستمد هذه القدرة كذلك من العودة الى المرجعيات التي تنير سبيل موهبته وقريحته المفضية إلى رائحة العقل : إنها كتب حكمة الأجداد وأوراقه المبعثرة على المكتب : فضاء الحفر الابداعي للنفاذ إلى ما وراء ظل الجسد.

الهوامش :

1 - عشبة المعنى - شعر سامي البيداني (ص 6) منشورات الأطلسي - تونس 1998،
2 - المصدر نفسه ص 7
3 - المصدر نفسه ص 8
4 - المصدر نفسه ص 9
5 - المصدر نفسه ص 11
6 - المصدر نفسه ص 13
7 - المصدر نفسه ص13
8 - المصدر نفسه ص 15
9 - المصدر نفسه ص 17
10 - المصدر نفسه ص 19
11 - المصدر نفسه ص 12
12 - المصدر نفسه ص . ص. 15 و17
13 - المصدر نفسه ص 21
14 - المصدر نفسه ص .ص. 23 و25
15 - المصدر نفسه ص 25
16 - المصدر نفسه ص 29
17 - المصدر نفسه ص 30
18 - المصدر نفسه ص 31
19 - المصدر نفسه ص 31
20 - المصدر نفسه ص 32
21 - انظر الفلسفة الرواقية لعثمان أمين
22 - عشبة المعنى ص 32
23 - المصدر نفسه ص 34
24 - المصدر نفسه ص 41
25 - المصدر نفسه ص 42
26 - المصدر نفسه ص 44
27 - المصدر نفسه ص 45
28 - المصدر نفسه ص 47
29 - المصدر نفسه ص 48
30 - المصدر نفسه ص 55
31 - المصدر نفسه ص 59
32 - المصدر نفسه ص 62
33 - المصدر نفسه ص. ص. 64 - 65
34 - المصدر نفسه ص 66
35 - المصدر نفسه ص 67.

للفتنة صور ثلاث

قراءة أولى في مدوّنة البابطين الشعرية

بقلم : محمد الغزي

للفتنة في قصائد البابطين صور ثلاث، وهذه الصّور مترابطة متداخلة لا يمكن فصل بعضها عن بعض. فهي تجسّد، في اجتماعها، تجربة عبد العزيز سعود البابطين الشعريّة، أعني تجربته الوجودية. ونحن نزعم أن هذه الصّور هي المفاتيح الحقيقية التي تمكّننا من ولوج قصائد الشّاعر واستقراء رموزها وأقنعتها، كما نزعم أن كلّ قراءة لا تلم بهذه الصور تظلّ، في نظرنا، قراءة قاصرة.

وصور الفتنة ثلاث هي :

- فتنة الإيقاع / فتنة الصّحراء / فتنة المرأة.

1 ـ فن فتنة الايقاع :

ما زلت أعجب من كتابة الشعر دون ايقاع !

أعجب من استبعاده أو إلغائه ترفعا أوْ تعقّفا أو بحثا عن سلامة موهومة.

الايقاع ليس حلية الشعر وزينته فحسب بل هو دالّ من دواله الكبرى، أو إذا أردنا استخدام عبارة فلاسفتنا القدامى قلنا : إنّه فضلة من المعنى قصرت اللغة عن التعبير عنها، ومن ثمّ فهو ليس نفلا زائدا وإنما هو المخرج الذي لا ينال بغيره. كل النظريات النقديّة الحديثة تؤكد علاقة الايقاع بالمعنى وتستدرك على النظريات القديمة التي جعلت منه جزءا من الشكل داخل الثنائية القديمة : الشكل والمعنى.

وقبل هذا فإن الايقاع هو الذي يدفع اللغة إلى أن تشفّ وتخفّ وتستنبت جناحين لتطير بعيدا. فهو حيلتها حتى تنسلخ عن وظائفها العادية : وظائف الابلاغ والاقناع والجدوى، لتكتسب وظيفة جديدة هي وظيفة الغناء، الغناء بالكلمات.

كيف يمكن تطويع الكلمات حتى تتحوّل إلى مزامير ؟

كيف يمكن أن تتآخى جارحة النظر مع جارحة السمع لتصبحا جارحة واحدة تسمع وتبصر في آن.

تلك هي معجزة الشعر، إنّه الفن الوحيد الذي

* نص المداخلة التي ألقيت يوم 23 جوان 2007 بمقر اتحاد الكتاب التونسيين في «إطار ندوة الشعر التونسي الحديث» التي أقامها الاتحاد بالتعاون مع مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين.

يربك وظائف الحواس، ويجعل بعضها تنهض بوظائف بعض. معجزة الشعر هي أنّه يتيح لنا أن نقرأ باسماعنا ونسمع بعيوننا فإذا القراءة عيد من أعياد الحواس والجوارح.

تلك هي الملاحظات التي كتبتها على هامش مجموعتي الشّاعر العربي عبد العزيز سعود البابطين : بوح البوادي /ومسافر في القفار/ حين قرأتهما للمرة الأولى.

إنّ أول ما يلفت انتباهك في هاتين المجموعتين هو الايقاع، الايقاع في ثرائه وتنوّعه وتجدّده ونضارته. فالدخول في هاتين المجموعتين دخول في مهرجان من الايقاعات كبير : البسيط، المتقارب، الكامل، الخفيف، الرّمل، الوافر. لقد تحولّ العروض على يدي هذا الشاعر إلى آلة موسيقية يعزف عليها فيصدر كلّ مرّة ايقاعا جديدا.

في حضرة هذا الشعر نتذكّر ألوانا من البحور غابت عن ذاكرة الشعراء فلا نصادفها إلا في الشعر القديم. ومن هذه البحور الفاتنة المجتثّ.

كانت أستاذي محمّد مزهود رحمه اللّه، يجري قصائده على هذا البحر الجميل، ويقول بنبرة طافحة بالحزن والأسف : ربّما كنت آخر من يكتب عليه.

ويحيلني على جملة من القصائد القديمة جرت على هذا البحر مردفا :

ـ لا أحد كتب على هذا البحر إلاّ أجاد وأبدع.

إنّ البابطين يعيد احياء هذه البحور، ينفخ فيها الروّح، يجدّد نسغها وماءها، يذكّرنا من جديد أن الاوزان غير منفصلة عن الجسد أي عن الشّعر وبالتالي عن الحياة.

من أين جاءت هذه الفتنة، فتنة الشّاعر بالايقاع؟

كلّ ما في المجموعة يؤكد أن فتنة الايقاع هي من فتنة الصحراء :

مهلا فأبرع من غنّوا ومن اطــربوا
قد يصمتون عن الإنشاد والــطّرب
حتّى يحين زمـــان يكشفـــون به
عمّا لديهم، لهذا الصمت، من سبب
رمالنا في الــــبوادي ذوب أزمنة
أنجبن من عزّ من ابـــائنـــا النّجب

2 ـ في فتنة الصحراء

والصّحراء في المجموعتين هي المحور الذي تدور عليه كلّ القصائد سواء افصحت عن ذلك أم لم تفصح، إنّها الرّحم الأولى التي منها تنحدر صور الشاعر ورموزه.

فتنة الشاعر بالصحراء لا نقرؤها في القصائد فحسب، بل نقرؤها في عنواني المجموعتين :

«بوح البوادي» و «مسافر في القفار»، نقرؤها في الوان الغلافين حيث ينتشر اللون الأصفر ثم يذوب في الأفق مشربا بحمرة، نقرؤها في الوان الأوراق التي خطّت عليها القصائد، نقرؤها في الرسوم التي اختارها الشّاعر ونقرؤها أيضا في المقدمتين اللّتين تصدّرتا المجموعتين.

يقول الشّاعر في بوح البوادي : «سمّيته بوح البوادي لأنّ الكثير من قصائده قلتها في صحار وبواد عربية وأجنبية مختلفة»

ويقول في مجموعته الثانية (مسافر في القفار) : «إنّ تشبثي بالصحراء والبادية والقفار لتسمية هذا الديوان والذي سبقه لأنّ البوادي جزء لصيق وهامّ داخل نفسي، وفي حياتي، فنفسي تنطلق في الصحراء إلى أقصى مداها، وتتفتح رؤاي فيها إلى أقصى اتساعها، واعتبرها المكان الطبيعي لروحي ونفسي أستنشق هواءها بملء رئتي، وأرنو إلى فضائها وأفقها البعيد بمدى اتساع بصري، فأجد فيها كلّ ما تشتهيه نفسي...»

إنّ الصّحراء كما أوضح الشاعر في هذه المقدمة، لا توجد في الخارج وانما توجد في الداخل، فهي بعض من ذاكرته، بعض من أساطيره، بعض من لا وعيه ووعيه في آن.

فاستدعاء الصحراء انما هو استدعاء لحشد من الرموز والصور. وقبل هذا كلّه فإن الصحراء هي التي الهمت الشاعر قصائده. لكأنّ الشعر ارتبط بالصحراء ولكأنّ الصحراء ارتبطت بالشعر. لكأنّ كليهما ارتبط في وجدان الشاعر بالتجدّد الدائم والولادة المستمرة.

سل وادي الحبّ واسـأل وردة فيه
عن اللقاء الذي لـو عـاد يرويه
تخضرّ أرض ويزهو فـي جوانبه
شيح وتنمو الخزامى في روابيه

فمن منهما يسكر الآخر؟

هل الصحراء تسكن الشاعر، أم الشاعر يسكن الصحراء؟

إن القصائد، كلّ القصائد تخبرنا بأوابدها، وجوارحها وأقمارها وأزهارها تسكن الشاعر وتملي عليه قصائده، القصائد كل القصائد تخبرنا أيضا أنّ الشاعر يسكن باساطيره وقصائده الصحراء ويملأ خواءها.

هل قلت إن الصحراء خاوية؟

كلا، إنّ كلّ قصائد البابطين تؤكد أن الصحراء طافحة بالحياة مليئة بالحركة. لكنّ هذه الحركة وتلك الحياة لا تبينان إلاّ لمن خبر الصّحراء واختبرها وعرف سيرتها وتاريخها، وسمع صمتها وسكونها. وإنّه لأمر ذو دلالة أن

يسم الشاعر ديوانه ببوح البوادي. لكأنّ الشاعر في هذا الديوان اراد أن يكون صوت الصحراء وحنجرتها. فقد باحت له بأسرارها فحولها إلى أغان. لكأنّ الشاعر يقول إنّ قصائده ليست قصائده وانما هي قصائد الصحراء وأنه لم يفعل سوى ترجمتها إلى لغتنا نحن البشر الفانين.

وفتنتا الايقاع والصحراء تمتزجان في هاتين المجموعتين بفتنة ثالثة هي فتنة المرأة.

3 ـ في فتنة المرأة :

تحضر المرأة في هاتين المجموعتين ضمن احتفالية الشاعر الكبرى بالحياة لكن المرأة التي يحتفي بها البابطين هي صورة للأنثى الكونية المقدسة التي فكت بفعلها المبدع العالم من أسر الموت وأتاحت للطبيعة أن تتوالد وتتكاثر.

هذه المرأة هي رمز الحقيقة ومجلى المقدّس، في حضرتها يتحوّل الشعر إلى نشيد احتفالي طويل يعدّد آلاء الجوهر الأنثوي بوصفه تجسيدا للمطلق فيتمّ الوصل من جديد بين الشعر والشعيرة والقصيدة والعقيدة :

عشقتك غراً ثم شـــــــابت ذؤابتي
وما زلت أصبو للمزيد من الحـــــبّ

تقولين لي لا سكن اللّه خـــــــافقا
وفياً سخياً مفعم الودّ للصــــــــبّ
أنادي بأعلى الصوت : ضاقت جوانحي
بقلب براه الشّوق من غير ما ذنـــب
ويبقى على عهد المحبّة نـــــابضا
يردّد : أصبو للمزيد من الحــــبّ

من هنا كان شوق الشاعر إلى المرأة شوق الرّوح إلى وطنها المفقود، وحنينه اليها حنين النفس إلى أصل عنصرها. فإذا كانت الحياة حركة صعود من السماء إلى الأرض فإنّ الحبّ مثل الشعر معراج الشاعر من الأرض إلى السماء، الحبّ ارتداد إلى حال الاتحاد الأولى التي تزول معها الاثنينيّة والغيريّة.

تلك هي في نظرنا صور الفتنة الثلاث التي تتحكم في قصائد عبد العزيز سعود البابطين وتوجّه صوره ورموزه.

وليست هذه الورقة الا توطئة اولى سريعة لقصائد الشاعر غايتها التنبيه الى أحد المداخل الممكنة لقراءة مدونة البابطين الشعرية.

الإنسان مثار سخرية

قراءة في أقصوصة «آخر المرافىء»(1) لزكريا تامر

بقلم : د. أحمد السماوي

كثيرا ما يلحظ قارىء زكريا تامر في أدبه الموجه إلى الكبار وأدبه الموجّه إلى الصغار، على حدّ سواء، هيمنة حضور السخرية. ويقتضي انتباه القارىء لهذا الحضور تحقق انفعاله على مرحلتين مباشرة، وهي إثارة ضحكه، وغير مباشرة هي تعقّل أسباب هذه الإثارة للضحك، وهي المهمة الموكولة إلى القارىء الناقد الذي لا يقدر على التأمّل في دواعي الضحك إلاّ وقد تبدّد الضحك وحلّ محلّه التجهّم والبحث الرصين. وربما كان هذا التجهّم النتيجة الحتمية للضحك عندما تكتشف المرارة القابعة وراءه.

والسخرية التي يعمد اليها زكريا تامر لا تخرج عن الأصناف الأربعة التي يوزع اليها السخريّون (ironologues) أو المختصون في السخرية من الإنشائيين السخرية. فثمة السخرية السقراطية وسخرية المقام وسخرية المقال والسخرية الرومنطيقية(2). ولكلّ من هذه الأصناف خطابه وغائيته ودلالته ووجهه البلاغي المخصوص. ولعلّنا، بتناولنا أقصوصة «أخر المرافىء» أن نوضح تجليّات هذه السخرية المختلفة.

تقوم هذه الأقصوصة على فكرة مركزية هي مسخ السندباد حمارا. وتتوزع إلى مقطعين سرديين متضامنين يعبّر الأول عن نجاة السندباد من الغرق، في حين يشير الثاني إلى سعادة السندباد في المسخ. ولكلّ من هذين المقطعين جمل سرديّة أربع لا خمس، إذ التوازن الأولي، أي الجملة السردية الأولى فيهما، يستفاد من السياق أو من توازن المقطع الأول الفريد. وتكوّن هذه الجمل حبكة تنطلق من تحطّم سفينة السندباد، فإشفاقه على الموت غرقا، فإنقاذه، فنجاته. لكنّ هذه النجاة التي تمثّل فضّا لإشكال الغرق تمثّل بدورها إشكالا جديدا ما دامت قد حصلت في جزيرة لا يسكنها إلاّ الحمير. لذلك، بدأت جمل المقطع الثاني بالسقوط يعقبه العجز، إلاّ أن تصدّي السندباد ما لبث أن انهار ليمسخ هذا السندباد حمارا. وعندما نقارن بين المقطعين نجد أن التضامن بينهما لا ينفي بناءهما بناء تقابل. ففي حين كانت جملتا المقطع الأوّل الأخيرتان تتوجهان صعودا، كانت جمل المقطع الثاني، في معظمها، تتوجه نزولا. وهو ما يعني أنّ النجاة الحاصلة في المقطع الأول ما هي إلاّ وهم أو تأجيل للسقوط النهائي. فمقابل الموت المحقّق غرقا جاء المسخ حمارا بديلا. ويبدو أن رضا السندباد بالمسخ هو اختيار

مال إليه إزاء قياس الإحراج الذي وجد نفسه فيه، فإمّا الموت وإمّا المسخ. واختيار المسخ هو تفضيل للحياة على الموت، وإن كان ذلك في صورة غير آدمية. ومجرّد الرضا بالحياة على هذه الشاكلة هو الذي يطبع الأقصوصة بطابع المفارقة، وهو الطابع الذي يسم السخرية الرومنطيقية بالأساس، ويحقّق للأقصوصة بعدها الجماليّ المميّز.

وحضور المسخ، بوصفه تحويلا من الطبيعي إلى الخارق، قد يجعل الأقصوصة انفجاريّة، ويوجّه، من ثمّ، كيفية التناول، لكنّ وجود المفارقة، بوصفها سمة للسخرية في الأقصوصة مهيمنة، يرجّح كفّة تناولها على أساس خدمتها السخرية لا على أساس خدمتها الغرائبيّ.

ولهذه المفارقة حضور في الأقصوصة منذ مطلعها. فالتشبيه الذي اختاره الراوي للفضاء الذي وجد فيه السندباد نفسه، وهو البحر، ينبني على تناقض بين كونه قبرا مظلما، وبين اتساعه لملايين من الرجال والنساء والأطفال والأبنية. فالقبر سمته الضيق والظلمة، والبحر سمته السعة والرحابة. فإذا ما سقط السندباد في البحر الواسع هذا، فمن أين له أن يهلك، بل من أين يجيئه اليقين بالهلاك؟ يبدو أنّ التعارض بين المشبّه والمشبّه به غايته التنبيه على أن الهلاك ليس فناء ماديّا بقدر ما هو فناء معنويّ. وهذا الفناء المعنويّ ينسجم مع الاختيار الأصل، وهو المسخ بدل الموت.

وللمفارقة تجلّ آخر يتسق مع الفناء المعنويّ المتسق هو بدوره مع المسخ بدل الموت، وهو تحقّق ظنّ الحمار في السندباد، وإن بتعديل طفيف. فحالما رأى الحمار السندباد، ظنّه من حيوانات البحر الغريبة، وتبيّن له بعدئذ، أنّه حيوان بريّ. فالظنّ بأن السندباد من الحيوان قد ثبت، ولا ضير في أن يكون هذا الحيوان بريّا وأن لا يكون بحريّا ما دامت كفّة حيوانيته قد رجحت كفّة إنسانيته.

ويأتي وجه المفارقة الثالث، السعادة في الحيوانية بدل الشقاوة في الإنسانية، ليشدّ من ازر الوجهين السابقين، اليقين مقابل الحقيقة، والظنّ مقابل الثبوت. فالسندباد، إذ أصرّ على عيشه إنسانيته في جزيرة الحمير، لم يلق إلاّ شقاء. وما إن قبل بعيشه حمارا حتّى عرف السعادة. وهذا الوجه من السخرية هو ما يسمّى سخرية المقام ما دام يقدّم صورة من حياة السندباد، ويهدف إلى انقلاب الوضع. فالسعادة لا تتحقّق للإنسان إلاّ متى تخلّى عن آدميته(3).

وقد أتى البرنامج السرديّ ليدعم هذه المفارقة على مستوى الفواعل. لكن الأقصوصة لم تخضع لبرنامج سرديّ وحيد، بل لبرنامجين اثنين مختلفين ما دامت الذات قد نهض بها ممثلان اثنان هما السندباد والحمير. ولكلّ منهما موضوع رغبته ما دام يقوم على إقصاء لموضوع الآخر. فالذات، السندباد، التي وعت قيمة المرسل المتمثلة في البحث عن السعادة،

دورها تبليغ هذه القيمة إلى مرسل إليه هو نفسها والإنسان عامة. والموضوع الذي حدّدته لنفسها هو إثبات الذات البشريّة، يساعدها في ذلك النجاة من الغرق، ويعارضها الحمير. أمّا الذات المضادّة التي ينهض الحمير بدورها التمثيليّ، فتعتبر أنّ القيمة التي يدعو إليها المرسل قوامها أنّ السعادة تكمن في مجرّد الحياة. وهذه القيمة مطلوب من الذات المضادّة، الحمير، تبليغها إلى المرسل إليه، وهو السندباد، وسبيلها إلى ذلك ضبط موضوع رغبتها، وهو تأييد الجهل، ويساعد الحمير في أدائه مهمّته النجاة، كما في البرنامج السابق، وتعارضه حريّة الإنسان.

ويكشف هذان البرنامجان التعارض القائم بين الذات والذات المضادّة أو السندباد والحمير. وهو التعارض القائم بين الإنسان الحرّ والحمار الخاضع، أي بين الإنسان الذي يأكل ليعيش لا ذاك الذي يعيش ليأكل. وما دام هذا الإنسان يأكل ليعيش، فلا بدّ من أن تتّسع مجالات عيشه للتفكير والفهم وإبداء الرأي وفرض الحقّ. أمّا الحمير فيريد من هذا الإنسان أن يعيش ليأكل «إذا جاع أكل، وإذا عطش شرب، وإذا نام استظلّ بظلّ شجرة».

ووجود برنامجين سرديّين تتوفر فيهما ذات وذات مضادة، ويقومان على تصورين للإنسان، أحدهما يعتبر العيش سبيلا إلى الأكل، والآخر الأكل سبيلا إلى العيش، قد انتهى إلى انتصار الذات المضادّة، اذ أثبت الحمير وجهة نظره، وعجز الإنسان عن التأثير في الطرف المقابل له. وأن تنتهي الأقصوصة إلى هذه النتيجة دليل على أنها مبنية على المفارقة وأنها تستهدف تهكّما وسخرية.

ويبدو أنّ لطابع النصّ الأقصوصي دورا في تكريس المفارقة، والسخرية فيه. وقد كشفت لنا تركيبة الأقصوصة بعد وجهين من وجوه السخرية هما سخرية المقام والسخرية الرومنطيقية، فلنبحث في ما عسى أن يبرزه قيام الأقصوصة على برنامجين سرديّين متقابلين من وجوه للسخرية أخرى.

إنّ أوّل ما يدعو إلى السخرية حذق الحمير العربية الفصحى، بل وتكلّمه إيّاها. ومردّ السخرية إلى أنّ العرب الذين يدعون أنهم محظوظون بلغة قدّسها الله إذ نزّل بها كلامه (القرآن)، قد نافسهم فيها الحمير، إذ تلفّظ بهذه اللغة، وهو ما يوحي بدونيّة هؤلاء العرب، لا المحدثين فقط بل القدامى أيضا.

وثاني مظاهر السخرية إنكار الحمير، وقد بلغ من العمر عتيّا، معرفته بالإنسان في حين يعرف السندباد هذا الحمار فهو، بمجرّد أن فتح عينيه رآه فعرفه.

وثالث مظاهر السخرية تنازل السندباد عن هويته الخاصة ليحقق انتماءه إلى الجنس البشري أصلا: «أنا الإنسان الذي تقول الكتب عنّي إنّي أثمن رأسمال». وهو ما لا يرضى له به الحمار.

أما رابع المظاهر فتهافت الحجة التي يدافع بها

الإنسان عن نفسه. فهو، من أجل إقناع الحمار بأهميته، أشار إلى الكتب. بيد أنّ هذه الكتب هي آخر ما ينتبه له الحمير لأنّه لا يطلع عليها، وليس من مشمولاته فعل ذلك.

وخامس مظاهر السخرية توهّم الإنسان اختلاف الحمير بعضها عن بعض. فالإنسان، إذ يريد تبكيت الحمير، يشير إلى أن سلوك بعضه في أماكن أخرى غير سلوك حمير الجزيرة. بيد أنّ الإنسان مقتنع بأنّ طبع الحمير عموما واحدٌ في أيّ مكان. فهو جميعه قابلٌ لأن يركب. لكنّ الواقع عكس ذلك. فالحمير الذليل الأبله وحده هو القابل لأن يركب. وايراد الحجة ونقيضها، الغاية منه تنبيه الإنسان لأنّه لا يعرف الوضع المناسب الذي فيه يتحتم تقديم الحجة. فهو يرمي، ولكنّه لا يصيب الهدف البتّة. ومثل هذه السخرية القائمة على جدل أنموذج للسخرية السقراطية وإن كانت لا تستهدف الحقيقة بقدر ما تبتغي الإكراه على الاقتناع.

وسادس مظاهر السخرية اعتبار الإنسان عنصر فرجة يخفّف على الحمير المتفرّج بعض ضيقه، خصوصا وهو نكرةٌ لديه.

وركم الراوي هذه المظاهر المتعددة المختلفة للسخرية يفترض أنه في ذاته وجهٌ من وجوهها. فإذا تسنّى نسبة هذا المظهر الساخر أو ذاك إلى وجه من السخرية معيّن، فإنّ النظر في المظاهر المختلفة يشكّل هو بدوره وجها قائم الذات. وهذا الوجه هو سخرية المقال. والخطاب الذي اليه تنتمي.. هو الخطابة التي تبتغي أساساً الإقناع أو الحملَ على الاقتناع ولعل دأب الأقصوصة على إهمال هويّة السندباد الخاصة لتنسبه إلى الجنس البشريّ أو إلى الإنسان، أن يكون أبرز مظاهر سخرية المقال هذه. فالنكاية ليست بالسندباد، بل بالإنسان عموما. وعندما نرجع إلى مفاصل النّص يتضح لنا هذا الدأبُ في تسويد السخرية: «ولكنّه فجأةً اصطدم بلوح»، و «فجأةً قال أحد الحمير»، «ولكنّه شيئا فشيئا». فهذه المفاصل تبدأ إمّا بالمفاجأة وإمّا بالاستدراك لتفيد تحوّلا كليّا. وآخر هذه المفاصل يشي بغلبة التطبّع أي تطبّع السندباد بطباع الحمير. وفي هذا وحده مكمن سعادته. وهي النقطة التي فيها تبلغ السخرية أعلى مداها، بما يعني ذلك من عدم التفكير والمشي على أربع وأكل العشب والنهيق والرفس. ومثل هذا التطبّع لا يعتبر توازنا فريدا أي عودة إلى التوازن الأوليّ الذي كان أصلا بل هو إغراق في الإساءة التي حصلت، واستقرارٌ لها في حالها الفجّة.

والتركيز في الإنسان بدل السندباد فردا، يتأكّد من خلال أخذ السندباد على أنّه رمزٌ لا على أنّه الشخصية التراثية أو الشخصية الأسطورية. فالسندباد التراثيّ هو ذاك الذي عرفت به حكايات ألف ليلة وليلة. فإذا هو البحّار الكثيرة السفر، الكثير الرسوّ بالموانىء، الكثير التعرض للغرائب والعجائب. والسندباد

الأسطوري قد استقى صفته الأسطورية من تفوّقه على البحارة جميعهم وخروجه سالما من المغامرات الصعبة التي يمرّ بها. وما دام السندباد المعنيّ في النصّ رمزا لا يربطه بالسندباد التراثيّ سوى الرسم أو الايحاء، فإنّه يعتبر مطلقا، ويلتبس آنذاك بالإنسان عامّة لا بفرد بعينه. والمقصود بالسندباد الرمز أنّه فوق الزمان وفوق المكان. فزمان ظهوره غير محدّد، والمرفأ الذي عنده رسا هو آخر المرافىء. وبذلك يرتبط السندباد بصورته التراثية الأسطوريّة، من ناحية، ويتجاوزها إلى ما عداها، من ناحية أخرى. والأقصوصة، بذلك، تعيد إنتاج ألف ليلة وليلة، ولكنّها، في الوقت نفسه، تنسخها بما للنسخ من ازدواج في المعنى. فهو محو وتطريس في آن معا. وإن بدا الزمان والمكان غير محددين بإطلاق، فبالامكان تحديدهما بالنسبة إلى ما سبق المرفأ الأخير الذي عنده رسا السندباد. فلفظ «آخر» يحوي البعدين الزمانيّ والمكانيّ في آن معا. فعند هذا المرفإ الأخير ينتهي السندباد الإنسان البحّار ليتحوّل إلى الحمار الراضي بوضعه. وهذا التحوّل يعكس العلاقة القائمة على صراع. وتتضح هذه العلاقة في أجلى مظاهرها عند التصدّي. فالإنسان، ممثلا بالسندباد، يتفاخر بنقله البريء إلى متحضّر (الجنس البشري الذي حوّل الأرض من أدغال للوحوش إلى مدن زاخرة بالرقيّ والحضارة). بيد أن السؤال الذي طرحه أحد الحمير: «ولكن هل أنتم سعداء؟» قد جاء ليبدّد نشوة الزهو. فقد أثار السؤال قضية شائكة مفادها: هل الحضارة حققت تجاوزا للطبيعة أم هي اسهمت في تأبيد الظلم واعتداء الإنسان على أخيه الإنسان؟ وأعاد السؤال إلى الأذهان تصوّر كلّ من جان جاك روسو وسيغموند فرويد للحضارة، أولهما يعتبرها مفسدة للإنسان، في حين يعتبرها الثاني مظهرا من مظاهر تساميه. وسؤال الحمار عن السعادة ليس سوى إزدراء منه بالانسان. وقد عبّر الراوي عن هذا الإزدراء بخطابه الإسناديّ عندما قال: «وفجأة قال أحد الحمير» ليثير قضية الثقافة والطبيعة التي يعيشها الإنسان مرارة وضيقا. فالإنسان، ممثلا في السندباد، قد جهر بصورة الإنسان الايجابية فأعلى من شأنها، ولكنّه اضطرّ إلى الصمت عندما حضرت لديه صورة الإنسان السلبية، وهي تلك التي يفتقر فيها إلى السعادة. فالإيجابيّ يصرّح به أمّا السلبيّ فيسكت عنه. وهذا السكوت يخفي مرارة وعذابا. ولكن أيّ إيجابيّ هذا الذي يتفاخر به الإنسان؟ وأي سلبيّ هذا الذي يخفيه؟ إنّ الإيجابيّ هو الدعاية والوهم. أمّا السلبيّ فهو الحقيقة. وشتّان ما بين المعلن ،المخفيّ، أي بين الوهم والحقيقة! ولعلّ النكاية في الإنسان وبلوغ السخرية أوجها أن تكونا وراء إصرار السندباد على الصمت رغم الاستفزاز والاستثارة. وهو ما يقوم دليلا على الرضا بالنكاية في الإنسان ومواجهته

مواجهة صارمة. وهذا ما تستدعيه السخرية الرومنطيقيّة.

وهكذا يبدو أنّ هذه الأقصوصة، على قصرها، قد حوت وجوه السخرية الأربعة، وإن جاء بعضها مجرّد إشارات عابرة غير مكتملة. وقد استعملت السخرية لإضفاء جماليّة على نصّ الأقصوصة ربما لا يتسنّى للجدّ تحقيقها. بيد أنّ الرغبة في الإقناع قد فرضت اللجوء إلى سخرية المقال والسخرية السقراطيّة بنيّة تضافر الأوجه المختلفة للسخرية في تقديم أداء متكامل. وليست النيّة من وراء السخرية التهريج أو الإضحاك اللذين يبغي من ورائهما المهرّج إمتاع غيره بقدر ما هي الفكاهة والدعابة اللتين يبغي من ورائهما الساخر لذّته، كما يقول أرسطو في كتاب الخطابة(4).

الهوامش :

1 ـ زكرياً تامر، آخر المرافىء، ضمن نداء نوح، لندن، رياض الريس للكتب والنشر، 1994، ص ص 147 ـ 154.

2 ـ انظر الجدول الذي وضعه بيار خوانتس لهذه الأصناف ضمن مؤلفه :
Pierre Schoentjes, Poétique de l'ironie, Paris, Editions du Seiil, 2001, p. 26.

3 ـ يميّز بيار خوانتس بين سخرية المقال وسخرية المقام فينبّه لكون سخرية المقال تفترض عموما ساخرا واعيا بالتقنية التي يستعمل، وبالمعنى المزدوج لكلامه. أمّا سخرية المقام فيبدو ألاّ نيّة مبيّتة لمن يستعملها في القيام بها ما دامت نتاجا لترتيب معيّن للأحداث لا يخلو من أن يكون صدفة محضة. أنظر بيار خوانتس، م.م. ص 25.

Aristote, Rhétorique, (1449b, 8,9) cité par pierre schoentjes, Poétique de l'ironie, op. cit. p. 34.

آخر المرافىء

قصة : زكريا تامر

لمّا حطّمت العاصفة السفينة، وجد السندباد نفسه وسط بحر كقبر مظلم يتّسع لملايين من الرجال والنساء والأطفال والأبنية، فأيقن أنّه هالك لا محالة، واستسلم للأمواج مودّعا الحياة، ولكنّه فجأة اصطدم بلوح خشبيّ من الواح السفينة المحطّمة، فتشبّث به، وحمله اللّوح، وألقاه على شاطىء ما، فأغمض السندباد عينيه، ونام.

وصحا السندباد من نومه على ضياء شمس حارّة وصوت يقول مستغربا : «ما هذا الشيء» ؟

ثمّ سمع الصوت نفسه يقول : «لابدّ من أنّه حيوان ميّت من حيوانات البحر الغريبة قذفت به الأمواج في الليل إلى شاطىء جزيرتنا».

ففتح السنداد عينيه، فرأى حمارا يقف قربه، فتطلّع في ما حوله، وصاح : «من الذي كان يتكلّم »؟

قال الحمار : «أنا الذي كنت أتكلّم»

فشهق السندباد متعجبا، وصاح : «حمار يتكلم اللغة العربية الفصحى؟ كأنّي في منام! هذا شيء لا يصدّق» !

فقال الحمار باستياء : «ما لا يصدّق هو أن تستطيع أنت أن تتكلّم، كما أتكلّم أنا».

قال السندباد : «أين أنا؟».

قال الحمار : «أنت في جزيرة الحمير. ولا أحد

يعيش فيها سوى الحمير».

قال السندباد : «وهل الحمير كلّها قادرة على أن تتكلّم كما تتلكّم أنت؟».

فهزّ الحمار رأسه بالايجاب ، وشرع في التحديق إلى السندباد بنظرات متفحصة. ثم سأله : «من أنت؟ لقد صرت عجوزا ولم أشاهد في حياتي كلّها مخلوقا مثلك».

قال السندباد مدهوشا : «ماذا تقول؟ ألم تعرفني؟ أنا الإنسان الذي تقول الكتب عنّي إنّي أثمن رأس مال، وأوصف بأنّي سيّد الأرض».

فقال الحمار بنزق : «كن مؤدّبا. لا سيّد هنا إلاّ الحمير».

قال السندباد ضاحكا : «ولكنّ الأمر في أماكن أخرى من العالم يختلف عن جزيرتكم».

فقال الحمار بلهجة تهديد : «هيّا امش معي».

قال السندباد : «هل هزل الزمان إلى حدّ أنّي أتلقى الأوامر من حمار؟».

قال الحمار غاضبا : «اسمع. سأرفسك بقوّة إذا لم تطعني، وتكفي صيحة منّي حتّى تتجمّع حولك حمير لا يحصى عددها وتلقّنك درسا لا تنساه».

ففكّر السندباد لحظات، ثم قال للحمار : «أنا متعب، فدعني أركب على ظهرك».

قال الحمار باستنكار : «ماذا أسمع، أتريد الركوب على ظهري؟».

قال السندباد : «ولماذا تستغرب؟ ما طلبته منك نقوم به الحمير يوميّا في بلادنا».

قال الحمار بازدراء : «لابدّ من أنّ الحمير في بلادكم ذليلة أو بلهاء».

قال السندباد : «وإلى أين ستأخذني؟ إلى رئيسك؟».

قال الحمار بلهجة من أهين إهانة بالغة : «لا رئيس لي، كلّ حمار هو رئيس نفسه. نحن لا نحتاج إلى رؤساء وقوانين، ولا سبب يدفعنا إلى النزاع والاختلاف، فمن يجع، فالعشب موجود بكثرة، ،وفي مقدوره أن يأكل منه حتّى يشبع، ومن يعطش، فالماء العذب غزير ويشرب منه حتى يرتوي، ومن يرغب في النوم فالأرض واسعة».

قال السندباد : «إذا إلى أين تريد أن تأخذني؟».

قال الحمار : «سآخذك إلى حيث تعيش الحمير لتراك، ولا أعتقد أنّ حمارا من حمير جزيرتنا قد رأى مخلوقا مثلك».

فخضع السندباد لمشيئة الحمار. ورافقه إلى سهل كثير العشب والماء والشجر، وتحتشد فيه أعداد عظيمة من الحمير.

وما إن رأت الحمير السندباد حتّى تحلّقت حوله، وراحت تحدّق إليه بنظرات ساخرة، فأحسّ السندباد بأن نظرات الحمير لا تهينه وحده بل تهين بني البشر أجمعين، فصاح : «أنا أحتجّ على هذه المعاملة غير اللائقة. لماذا تتفحصوني كأنني ذبابة أو جرادة أو ضفدعة؟ ينبغي لكم أن تحترموني، فأنا واحد من الجنس البشريّ الذي حوّل الأرض من أدغال للوحوش إلى مدن زاخرة بالرقيّ

والحضارة، ولتعلموا أنّ البلاد التي جئت منها بلاد عظيمة لا تقارن بجزيرتكم هذه التافهة».

فقال حمار من الحمير للسندباد: «ما دمت تتباهى ببلادك فما الذي يوجد فيها ولا يوجد لدينا؟».

قال السندباد: «وما الذي يوجد في جزيرتكم غير العشب والماء والشجر؟ في بلادي، عندنا عشب وماء وشجر، وعندنا أيضا بيوت للأحياء ومقابر للموتى. عندنا برلمانات وانتخابات وصحف ومجلاّت وكتب وإذاعات وتلفزيونات. عندنا مدارس وجامعات وملاعب رياضية. عندنا أدباء وكهرباء وشوارع ودساتير وحدود بين الدول. عندنا جيوش وأسلحة من مختلف الأنواع. عندنا مركبات فضائية ورجال مشت أقدامهم على أرض القمر. عندنا سيارات وطائرات وثلاجات وثورات وانقلابات...».

فهيمن سكون غريب على الحمير، فتأمّلها السندباد بنظرات مزهوّة.

وفجأة قال أحد الحمير: «يجب أن نعترف بأنه لا وجود في جزيرتنا لشيء ممّا ذكرت، ولكن هل أنتم سعداء؟».

فوجىء السندباد بالسؤال، وأحنى رأسه، وفكّر طويلا متجهّم الوجه، وهو يرى الناس يتقاتلون على القمامة، ،كلّ شيء للبيع وذو ثمن محدّد، وحتّى الإنسان يباع بأبخس الأسعار، ولا يجد من يرحّب بشرائه، فالمعروض أكثر من المطلوب. كلّ شيء يتردّى ويتدهور، فالأب يتنكّر لأبنائه، والأبناء يعاملون آباءهم كأنّهم خصوم ألدّاء، والزوجة تستشهد في سبيل زوجها إذا كان ثريّا، وتهمله إذا كان فقيرا ولا تأبه له حتّى إذا كان - مالكا لكلّ فضائل الدنيا، والرجال نساء، والنساء رجال، والصدق مفقود محتقر، والكذب مبجّل، والدعيّ يحتلّ كرسي الأصيل، والأصيل منبوذ مهان تطارده الكلاب، ودماء الأبرياء تسفك كلّ يوم ولا منتقم لها، والأخ يقتل أخاه إذا كان سيفوز بفردة حذاء، والفاسد له الصدارة والتمجيد، والصالح يعامل كأنّه قاتل أمّه، والصديق وقت الضيق لا وجود له إلاّ في الحكايات الكاذبة التي تروى للأطفال.

وقال الحمار للسندباد: «لماذا لم تجاوب على سؤالي؟ هل أنتم سعداء؟».

فأحنى السندباد رأسه، ولم يفه بكلمة.

وفي ما بعد، بحث السندباد عن وسيلة تمكّنه من الهرب من جزيرة الحمير فأخفق، واضطرّ إلى العيش فيها، وتحمّل الكثير من سخرية الحمير، فهو يفكّر ويمشي على قدمين، وصوته ليس بالمنكر، ولكنه شيئا فشيئا تعوّد ألاّ يفكر إلاّ في التهام العشب الأخضر الطازج، وبات يمشي على أربع، وينهق ويرفس، فظفر باحترام الحمير، وعاش سعيدا، وتخلّى عن التفكير في الفرار.

زكريا تامر، نداء نوح، منشورات رياض الريّس للكتب والنشر، 1994، ص ص 147 ـ 154.

شعـــــر

قصائد

شعر : د. نور الدين بن بلقاسم

ضجـــر ...

كانت سيارتي قديمة قد بلغت سنّ التقاعد، فكلّما أكثرت من التنقل عليها تعطّبت، وأخسرتني - لإبدال قطعة من قطعها - ما لا أخسره في شراء تذاكر المواصلات العمومية في شهر أو شهرين. ولذلك كنت أدّخر جهدها للمناسبات الهامة أو السفرات الطويلة مع الاسرة إلى «دواهم» حيث عائلتي الموسّعة بولاية المهدية.

ومن ثمّ اضطر إلى أخذ المواصلات العامّة للإنتقال إلى عملي الإداري بين قرمبالية وتونس، مع ما في ذلك من آنتظار، وضياع للوقت، وإحساس بالإحباط لعدم القدرة المادية على شراء سيارة جديدة.

وبدافع هذا الإحساس قلت :

تمـــرّ القوافل وتمضـــي
وأبقـــى على موضعي قاعدا
فذا الفقر يفعل فيّ الفعال
فأنـــزل لمّا أكـــن صـــاعدا
متى يرحل الفقر عن ساحتي
ويبســـم لي زمـــني واعـــدا
فذو الجهل يغرق في يسره
وذو العـــلم في عسره راعدا

الدّيك آلمريد...

في حديقة بيتي ديك عجوز يؤذّن بآستمرار عند صلاة الفجر، حتّى كأنّه مرصود لذلك، فخاطبته قائلا :

أيّهـا الديـك آلمليـح
مـالك دوما تصيح ؟

أتـرى أنـت مـريـد
أم تـرى أنت جريح ؟

كلّمـا آلفجـر تراءى
جـاء من فيـك البريح ...

ذات الوزن الثقيل

يـا آمرأة مدعدعـه
محشـوّة كبردعه،
لا تمشي مثل بطّة
بمشيـة مقطّعـة،
لا تلهبي مشاعري
فاليوم يوم جمعه،
والحبّ فيـه بدعة
وربّنـا قـد رفعـه.

كـآبـــة ...

سألتني زوجتي عن رأيي في الدّنيا والنّاس، وكنّا في الطريق على سفر، فأجبتها بعد لأي على سؤالها بما يلي :

آه لو تدرين ما بي
من عذاب واكتئاب،
كنت في بدء شبابي
أنسج الحلم وأرنو للسّحاب،
أغزل الضوء خيوطا
من إخاء وفداء وآحتساب،
وأرى الدّنيا ورودا ووعودا
وطيوفا عازفات بالرّباب،
وعرفت ما عرفت بآجتهادي
وغرامي بآلكتاب،
فاكتشفت أنّ دنياي تعجّ
باللّصوص والتّيوس والذّئاب،
كلّما قلت أخي أو قلت صديقي
بان من صنف الكلاب،
عالم النّاس عجيب
زاد حزني وآرتيابي،
ليت أنّي ما عرفت
زاد علمي في عذابي...

المجد في الغضب ! ..

كانت حرب اسرائيل على لبنان في صائفة 2006 على أشدّها، وكنّا في ملتقى فكري بصفاقس، فسألني أحد الأصدقاء :

- كيف لا يتحرّك العرب؟ أماتت الحياة فيهم؟

فقلت له :

- إبدأ بنفسك.

ثم كتبت ما يلي متوجّها به إليه :

اغضب لقومك يا فاهم
فهذا الأذى نحوهم داهم،

... ثم يخرج مجنونا من النشوة

شعر : حياة الرايس

يتخلل البرق جدائل المطر
ثم يخرج مجنونا من النشوة
يهرب البرق من المطر
في كل اتجاه...
خشية البلل
تتناثر النجمات وحبّات المطر
على صدر السماء
لترصيع وشاحها
كلما أبلاه الصحو والضجر
***
القمر يتكىء على حافة شرفته
ويتساءل :
كيف لإبرة أن تنسج المطر
وكلّ هذه الدنتيلا
في العتمة ! ؟
***
يستيقظ الماء غريبا في السماء
فينهمر شوقا على صدر العشب
يتدحرج المطر نشوانا ثملا
بعودته إلى الرحم...
***
يسيل المطر سواقي
فينقش وشما على وجه أنثاه

يفاجىء المطر الأرض
بأنوثتها المنسيّة
وحده المطر
يثير رعشة الأرض
ومن فرط غربته
يهرب من السماء إلى الأرض
***
الرعد صرخة المطر
لمّا يغادر رحم الغيمة
***
ملّ العشب الإستلقاء
الى الشمس
انه يشتهي لو يتدثر بغيمة
***
يشدّ قوس قزح
خصر السماء
لتختال تيها دون أن تسقط

طريق الماء

شعر : ناجي الحجلاوي

كل شيء في طريق الماء أخضر
ترتوي منه الحروف
والكلام يتعطر
كم عشقنا الماء في تابوت موسى
وفؤاد الأم مثقوب
وأكثـــر
آه، من رحلة هذا العمر
في وادي السنين
في زقاق الرّيح
في فجّ عميق
وبحار تتصحّر
ليس للتابوت باب..
في غدوّ ورواح..
راحة للماء في جوف الغياب
كلّ شيء في طريق الماء أخضر
وفؤاد الأم قدّ من ثوب الجراح
خذ يميني
خذ شمالي
ربما جاد بريق
ودنا أفق شريد
من سحاب ليس يمطر
يا طريق الماء
يا زاد المسافر
كم خطا فيك المحب
وتراءت في ثناياك الخواطر
والتي قصّت أخاها
ليت تدري أن الموج لا ينسى
وأن البحر تهواه المخاطر
كل شيء في طريق الماء ماء
والسمـــــــاء
تلهث كالرّيح
كي تلقاك في التّابوت
يا موسى
يا نور العمى.

قصائد للأطفال

العودة إلى المدرسة

شعر : الحسناوي الزارعي

أبتي أنظـر أبتي أنظـر ما أحلاني.. ما أحلاني
هـذا يـوم العـودة حـل أنظر ما أزهى الواني

*****

مذ حط الورد بميدعتي حسدتها كلّ الأزهار
وتغنّى الطير بمحفظتي والنّور تلألأ في الدار
كم زاد شوقي لمدرستي لرفاق الدرب وأقراني
ووددت أطير يا أبتي لألاقي صحبي وأقراني

*****

كم سرّ أمّي أن أكبر وقرأت الفرح بعينيها
ما أحلى فستاني الأحمر خاطته أمـي بيديها
وحذائي اللّماع يسحر ببريق صاف فتّان
وظفائري تختال نخطر تشدو ببديع الألحان

*****

يا ربّ بالصدق أنادي حقّق يا ربّي أحلامي
كي أنفع نفسي وبلادي بالعلم والخلق السامي
ولتجعل يا ربّي مرادي أن ترضى يا عالي الشأن
وأحوز رضاء أبوي بجميل صنيعي وإحساني

فراشة إيناس

ايناس في الحديقة　　تداعب الزهور
وتقفز وتركض　　وتلهو في حبور

وفجأة لاحت لها　　فراشة جميله
بين الزهور ترتع　　لكنها عليله

قالت ايناس: فرصتي　　وفكّرت في صيدها
وأحضرت شبكة　　وبالغت في شدّها

ثم جرت مسرعة　　تودّ أن تمسكها
تطارد الفراشة　　تكاد أن تدركها

أحسّت الفراشة　　بالخطر يحدّق
فاستجمعت قوّتها　　ثم مضت تحلق

ايناس و الفراشة　　كلاهما يجاهد
من ترى سيفشل　　من يا ترى سيصمد ؟

هنا ايناس تقفز　　تجري هناك وتنطْ
تعلو الفراشة هنا　　هناك تمضي وتحطْ

ما هي إلا برهة　　في الروضة الفسيحهْ
اذا بها الفراشة　　على الثرى طريحه

هال إيناس ما رأت　　من مشهد حزين
حذو الفراشة جثت　　قبّلتها قبلتين

يا ربة الفنجان

شعر : النوري قم

سألتها : يا ربّة الفنجان قولي : أيغلب الذي يهواني؟
أيسأل العشّاق عن ذنوبهم ان ذهبوا أم هم كالأوثان ؟
ما ريب شاعر، إذا تعلّقت مهجته بالوجد والإدمان ؟
ما عيبه لو عانق الدّنيا، ولم ينس الدّعاء في مأثم الرهبان؟
ردّي أنا النّاسك حيران الحشا لا تنطفي في ظلمتي أكواني
مازلت لاهثا وراء الكلمات عساي ألقى في الورى ركباني
لا أدعي ببطولة، وإنّما أحكي لشهرزاد ما أعياني
بالأمس، كما افتخروا بمولدي وقدّموا لي شيئا من قربان
كم ردّدوا يا مرحبا بالسيّد هلّ القريض رائع البنيان
واليوم، أغوى المال نفس صاحبي فبدّل الإخلاص بالنكران
حسب الحياة ذلّة وعنّة وحسبها أن تشتكي لدان
فلن يقوم حال من تظلّموا من نكد الأحداث والأزمان
أيرتقي بشهوة الجهالة متيّم بغادة الإذعان
إنّا خلقنا للعلى لكنّنا تهنا وراء صفرة الشطآن ؟
فكيف تبكي العاجزين ملّة جازت على الأعراف والأوطان؟
واعجبي من ولع البنون أيكون الغزاة كالأعيان ؟
هذا العراق يكتوي بفرقة وذي فلسطين عزاء ثان
وهذه الشّام الحبيبة رماها الأهل والأغراب بالعدوان
يا زمنا يهوى الجفا، ويستحي من الهوى وبهجة الإنسان
سوف يبوح الغد فاشهدوا، إذا خاب البلا وانجلت أحزاني
أو هلّلوا للقدس... للفرات ان النّصر آت على التّيحان
قولي فليس تكذب العقول وليس يهذي الفم بالتّحنان
لي وطن في العرب يحيا شامخا يعلو هواه فوق كلّ ران
ردّت علي لا تبال بالضّنى أنت النديم همسه عنواني
أنت القريب لو درت أجنحة قد حلّقت في الأفق والأفنان

قمر لمعمار الغياب...

شعر : أمين دمّق

على سفح العبارة
نم يا بن غربتنا
على سفح العبارة ريثما
تعد القصيدة شاعرا..
بالإ..نـ..كـ.. سـا..ر
على مناسك عريها
نم يا بن أوبتنا إلى شجر المجاز
لعلّـنـا.
نهدي انتجاعك في قلاع الظن
ريبتنا المذابة في خطاك
مـا زلت مكتنزا بآهات الصنوبر
يا المسافر..
في صليب الامتثال الى الشتات
لكأنك البدوي دوما لا تساوم
موجة ثكلى وريحا ثيبا
سحبا دماءك من رؤاك
كم كنت مزدحما بلغو الموج...؟
كي ترقى طوى
كم كنت ملتهب الخطى..؟
لتعلق الفوضى
على شجن الحدائق والمسلّة والقطا
من فلقتي قمر توحّد بالغواية
مـ..لـ..ـت
باليمن السّعيد إلى رباك
لعلّني أستلّ حلمي بغتة
وأعيد للشعراء أجراس الخليل
ولوعة التكوين
في سفر الخروج من الجناس
لم أجترح لغة الرّعاة
وما سيسمل حلم إخوان الصفا
لم أعتصر من لؤم سمعان
المشكك في دموع المجدلية
فوق أقدام المسيح..
قيامة العبث المخنث في مداك
نم يا بن توبتنا
من الماضي المحنك بالخيال
لتعير من رجموا ظلالك فرصة أخرى
ليكتمل المحال.
لك أوبة أخرى
فثق في الرمل
في طمي الحنين
وفائض الأحزان

كي تتوسّد التاريخ

والعمر المتهته بالزّوال

سل يا بن راحيل المتاهة

عندما رحلت شظايا السّاحل المرثي

في غبش الكلام

سل لوعتك..

فهواك يعتور المكيدة..

عورة الجبّ المسافر في الغياب

لا ذئب ينهش حلمك

إلا دموعك حينما

انفرطت على زغب السلام

ما زلت في تحنانك العنبي

ترفو ما تآكل من عناقيد الخرافة

هازئا من أبجديات..

التوحّد فيك.. في غنج السؤال

لكأنّك المستقبل، الماضي

وفي شريانك اللغوي

يتحد المثنى بالمكّنى والكمال

المنامة

شعر : جعفر البكلي

قالت لها :

« أبنيتي، إنّي لأكره ما كرهتِ،

وما حببت سرورُ

ولقد رجوتُ نهايتي،

وأضيق أن أشقيك بي،

وأظنّه المقدورُ

إنّي رأيت منامة..

ورأيتني والخبز رأسي والسماء طيورُ

ورأيتني والطير تأكل هامتي،

أبغي الفرار،

ومن أين الفرارُ؟!

عريانة حمراء مثل الشمس وقت غروبها،

والماء تحتي، والمكان بخارٌ

....

ثم تذكرت زمان الصغر

كنت أرنو لأمي - والصباح نوار -

أمّي تطير لرزقها، وتجيئني

لتزقني، ورزيقنا موفورُ

....

ولقد رأيت جناحيّ انبسطا طوالا، يا ابنتي،

- زمن النهار نهار -

ثمّ السّماء تلوّنت، ونسيمها.

هفّ الهواء.. هفّ الهوى المخمورُ

والزائرُ الموعود مثل سحابةٍ.

والعش عش سعادة،

والعمر عمر سيادة،

والبطن تملأه البذور

....

فإذا الأصيل.

ضممتك يا حياتي..

ليس إلاّ ريشي اليوم الدّثار!

ورأيت من سنواتي السود العجاف مناكرا..

إنّ السقوط فجور!

يأكلن ما قدّمت من عمل لهنّ، ويستزدن..

كأنهنّ النار!

....

ومضى الشباب..

مضى الحبيبُ،، مضى

زمن أضا ثمّ انقضى،

وأتى البوار

فلماذا لا تمضي بنا

يا أرذل العمر الذي شيباته نارٌ وعارٌ؟!

***

وقلبتِ حين كبرت يا.. إبنتي

وعذرت، حتّى غاضت الأعذار

أبنيّة الرّحم الطريّ تذكّري

أجزاء إحساني إليكِ كفور ؟!
إنّ العدو يلين للشيخ الضعيف تسامحا.
والماءَ تحويه الصخور
يا إبنة الرحم الذي ضمّتك ظلمته
إلى أن أينعتْ فيك البذور
أفلا ذكرتِ اللّه في ألم،
وفي أمل تغذى والشهور تدورُ ؟!

***

يا إبنة الرّحم الحنون تجمّلي،
فالفضل كلّ الفضل يجنيه الصبورُ
والفضل جنيّ يا ابنتي
ولكلّ جني مطعم
وألّذ ما يُجنى الشكور
ولقد علمتِ بأنّ كلاً زائلٌ
سَطَرَ الإله، وليس تبدل ذي السطور
ولكلّ شيء غاية، فتبدّل
حتّى الدّماء يصيبهُا يومًا فتورُ
سهم الزمان وإن تباطأ صائبٌ،
والموت نصلٌ ليس منه فرارُ
إن يضمر العظم الذي ما بيننا
فالعظم، بعد اليبس مرجعه الضّمور
أو يذبل الرحم الحنون، بنيّتي
فالحبّ بعد الطول يأتيه النفور
قيل الكسورُ لها الزمان لآلامها
ولقد صبرتُ وليت تلتئم الكسورُ
إنّي أنا أهديتُ من عمري لها
قالت : «لماذا ليس تطويها القبور» ؟!

***

إبنيّتي هي الدنيا تدور
وما الحياة إلاّ منامة، فاستيقظي
والموت لبّ، والزّمان قشور!

أناشيد الظهيرة الخضراء

شعر : مصطفى أحمد النجار (سورية)

نشيد العطر

لا لم يتفصّد جسد الوردة..
إلا عن شفق يحترق
عن قمر جرّته خيول جامحة..
إلا عن ظلمات تتناسل صبّارا، زقّوما،
أشكالا مفترسات.. ودروبا في التيه..
دروبا لم تبدأ ؟!
لمّي أوراقك، فالريح حسوم، لمّي،
أخشى أن ينفرط الورد
وأن تنكسر الروح
وأن تتبدّد أنفاس المطر
ويرحل عن تاج الوردة قلبي
فدعيني أتفصّد حتى آخر سطر
يا أول عطر..
يا آخر عطر ساطع !

نشيد الحلم

رأيتك سرب عبير..
يطارد رائحة الأفعوان
رأيتك غريّدة في كياني
رسمت السفوح..
تصاعدت نحو التلال
وقلت : ابتهج بحناني..
وقلتِ : انطلق بظلالي
رأيتك نهرا تراكض حتى حدود المحال
وحتى صحارى فؤادي
وحتى... ؟
ولما رذاذك أيقظ وجهي
تفلّت منك قليلاوعدت إليكِ
أمارس حلمي.. بعد هنيهه !

رؤيا غيمة !

مطرٌ يتفتّح في موسقة القلب..
قصائد لا تُنسى
مطر يتلألأ في أوردة الليل..
وفي جنبات الروح حروفا..
لا يشبهها شيء في الشكل وفي المعنى
آه.. أتمنى لو كان حقيقة !
لو كان المطر المتفتّح والمتلألىء مطرا يهمي..
في صيف الأحزان وفي رمضاء الجسد
لو لامس قيظ يدي
لو أنبت في ذاك الركن النائي
لو أعشب في قلبي ما أهمله المشغولون كثيرا
لو يطبق جفنيه على ثمرات الوجدان
لو يصبح مطرا أغلى عند الناس من المرجان
لا يعلو إلا صوت الإنسان
في قارعة العطش المشغوف برؤيا غيمة !

أغفل في القلب نجمتين

شعر : هاني نديم (سورية)

لي خيولٌ خوفها مدن ولي قمرٌ يومي لشباكي..
لي الحاء والفاء ولي وشم المطارح
ورائحة الأقمشة المحروقة
تحت قدور «القرباط»..
من ضيّع هذا الولد ؟
كفّ أمّه المعروقة
أم سود الملاءات قرب صاحب الفتوح ! ؟..
كنت وحدي.. بوجه غير مستدير تماما
لم تكن خولة قد فكّت ضفائرها
ولا أنا (طوّقت الحمامة) !
يا شيخ عمر لمن أشعلت سهر وردي ؟
يا شيخ عمر
من ضيّع هذا الولد بين الهوامش والمتون
لي الريح.. والشيح.. وكهانة الغبار،
ولي مجمع البحرين، الكامل والبسيط...
صحيح ! !
لا ليس لي قمر من خلفه قمرُ
ولم أغنّ.. فلفظي الريح والحجرُ
ولا هبطت لكفّ الطين يجبلني
ولا صعدت بجاه النور أنصهر
وما أزال وعمري ألف سوسنة
في عوسج الظنّ أحيا.. ثم أنتحر
وما أزال وخيلي دون نخوتها..
أرجو بلادا سقى أثوابها الكبر
يا اللّه...
كيف أوقظ أخي لأرد له قطعة السكّر ؟ ؟
يا اللّه...
لا أرضا ثباتا تحت زئبق السنابك
ولا قبّرة تطير من سنابل القسمات !.
هاجر وجهي.. وسمندل الوقت يغفو على صخرة
وأنا سبعون نذرا وحجابان...
ولي وطن مهلهل بالأناشيد والرجال
والثورات الصباحية للمغنين
يا اللّه...
تكلى مدائننا كثياب أمهاتنا
أيها التاج...
ثمة من يرسم - بالطباشير - وجه أمّه
أيها الوطن المنادى النكرة المقصود
قف بطابور الصباح معي..
وحيّي النعاس..
يا شيخ عمر
الوطن لفّ صرّته المقلمة
بالأسود والأحمر
وبأدعية كثيرة
سار... وأغفل نجمتين!..
أغفل في القلب نجمتين !...

القصــــة

ثلاث قصص قصيرة

بقلم : عبد الله الخلايفي*

ثلاث خطوات تحت الخريف

لم يكن على موعد مع الأوراق الميتة تذروها الرياح عبر التواءات الشوارع. كان يشعر أنّ الفصل ربيع! خطواته المتلعثمة نحو الموعد مضمخة ببكارة الحياة كالطفل يخطو خطواته الأولى، يشعر بكبرياء غامضة فيعيد المشي دون أن يبالي بالسقوط.

الرصيف ساحة يلطخها شحوب الأوراق، ولكن عمقه نشوة عارمة وقلبه حلم الفقير بالخبز : «أروع المواعيد ما كان في الخريف!»

- أخاف عليك من البرد والمطر!

- في عينيك الحزن والرمد يا حبيبي... أرجوك، أغرس فيهما الزهر والياسمين... وقص أغصان الدفلى العارشة على جبينك.

- ألست تكرهين رائحة الياسمين وتنهرين الصبية الذين يبيعون الياسمين؟

- أرجوك.. انظر لي بما شئت من الزهر.. كلمني بفخامة المطر وهزجة العصفور واغسل نبراتك من ايقاعات الاجراس النائية.

هي روعة الخطوة تغلفها الذكرى خطوة تنبت على الاسمنت زيتونة مثقلة بالثمر... ربع ساعة ويخرج وجهها الدافىء من دغل الوجوه.

ستحبك بعيدا عن الخريف، بعيدا عن الأوراق المرتعشة، بعيدا عن الموت، ستلدان طفلين يضحكان للشموس المختفية وراء السحب. ستبنيان العالم من جديد بإسمنت البراءة ورمل الجزر المجهولة، ستضحكان من كلمة، من مشكلة ترهق الناس، ومن اللاشيء !

هنا.. وتحت هذه الأسوار سيكون اللقاء، ستمشي اليك خفية كنسمة ربيعية.. كآية قرآنية تهزّ سكون الفجر..

غرق وسط أمواج البشر... برد الوجوه... وبرد السماء ينحشر في اضلاعه فيزيده شعورا بالخوف والغربة.. اشعل سيجارة أولى فتراقص المارّة والواقفون على دوائر دخانها المتشابكة.. سأله أحد الواقفين بجانبه :

- كم الساعة ؟

جبين عتمة اليأس وشفة مختلجة عاشقة.

- الثالثة إلا خمس دقائق.

*عبد الله الخلايفي : من مواليد الرديف (بالجنوب التونسي) سنة 1949 انتسب بعد احرازه شهادة الباكالوريا الى دار المعلمين العليا حيث تحصل على الاستاذية في اللغة والاداب العربية سنة 1980 وعلى شهادة التبريز سنة 1983 وكان قبل ذلك قد تولى تحقيق القسم الثاني من الباب الثالث من كتاب [الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام واظهار محاسن دين الاسلام] للقرطبي وذلك في اطار الاعداد لشهادة الكفاءة في البحث التي تحصل عليها سنة 1981 بإشراف الاستاذ عبد المجيد الشرفي، وهو يعدّ حاليا أطروحة الدكتوراه بعنوان (الاسلام والعنف الى موفى القرن 5 هجري) كما صدر له هذا العام 2007 عن دار الطليعة ببيروت كتاب بعنوان : [الاسلام العربي]. ويعمل عبد الله الخلايفي أستاذا جامعيا بالمعهد العالي للغات بتونس.

- الطقس بارد جدا.. قليلا ما يحدث هذا في بداية الخريف!

- أحيانا ينبع البرد من أعماقنا، ربّما كان ذلك في الصيف!

لماذا يتحدث عن البرد وهو يترقب أدفأ عينين.. انطفأت السيجارة في فمه فأشعلها من جديد.. أحسّ أن سلكا حريريا مرتفعا يشدّه بقوّة آسرة إلى الواقف قربه.. أخرج علبة سجائره وعرض عليه إحداها:

- شكرا.. حسنا فعلت..

واجههما، وهو يمدّ إليه عود الثقاب المشتعل، تقاربا، كل عين من عينيه مرفأ لدمعة معلقة. قال له:

- الوقت صعب، ولابدّ من ميثاق يشدنا إلى الرحلة والأكان الضياع.. الضياع.. والى الأبد!

عادا ينظران معا إلى دفق البشر المنهمر من الشارع العريض. أحسّ أنّه يطفو وأنّ الوقت قربه يطفو، والأسوار التي يقفان تحتها تتراقص كغجريات في حلم حزين.

ضحك الواقف قربه بعمق ثم ضرب على كتفه وقال:

- انّها هي! انّها هي!

ثم اندفع كالبرق نحو فتاة وسط العابرين.. أمسكها من كتفها وغاص في عينيها بجنون، وسمعها تردّ عليه بعنف:

«ماذا تريد منّي؟ انت مخطىء يا سيّدي! دعني أرجوك!»

حاصرته ابتسامة أعسر من الميلاد تردّدت في أرجائه. إنّه محتضَر.

عاد الشاب مهزوز الملامح ورأى أصابعه تتململ باحثة عن السيجارة التي تدحرجت على الرصيف ثم رآه ينحني ليأخذها مادّاً رقبته تحت مقصلة البرد والخيبة في سهوم.. أودع شفتيه جانبها المحترق تفرقعت شفته السفلى وفاحت رائحة اللحم المشوي فتذكّر القربان والاضاحي.. رمى الشاب السيجارة مطفأة بالريّق والحزن وغاب في منعرجات الشارع دون أن يودع رفيق الأسوار والانتظار!

«حاول أن تمدّ قدميك.. حاول أن تتحرك.. الموعد فات.. من هنا مرّت عربة الزمن.. دس على الصقيع.. ما أنت منتظر..؟

الربيع في الخريف.. جنون وزيف.. امش على قلبك.. افرش له أوراقا خريفية واقبره بالمطر والضباب.. هي لن تأتي.. لماذا تفلت؟».

ها قد بدأت الريح تعصف بوابل الأحزان.. اتصبح «بينلوب» تغزل الوهم وتنتظر الذي سيأتي به البحر.. ما أصعب مواجهة الشوارع بالفراغ والصمت والمدينة.. هذه العجوز يذرعها الجوعى والمتخمون واللصوص والكلاب!

«الوقت لا يكذب، الرابعة الآن وبعدها الخامسة.. اليوم السبت وغدا الأحد.. لماذا تريد أن يكون السبت غدا تودّ أن ترفس ساعتك؟ ماذا جنت؟

تحرك بتثاقل محموم، ومشى أولى خطواته متداعيا.. ومع كل خطوة ورقة داهمها الخريف.

حانة الضبّاب

... وككلّ الأمسيات الشاحبة أعود إليك يا حانة الضباب! أعود إليك والعمق عينا امرأة ثكلى، لا أمل لها في الولادة، تحملني اليك الغربة على أعناقها كميّت اختار مصيره رفضا للحياة.

دائما يصفعني بابك الحديدي في حنق وعندئذ أتيقن أنّي خسرت جولة في الصراع.. إنك «المورفين» الوحيد الذي يسكن نشجات الحزن القابع في داخلي كالأفعوان، كرسي المعهود يدعوني.. يعاتبني على الهجران والنافذة المقابلة المطلة على عالم الآخرين..
الآخرون المتدافعون في الخارج تهمزهم أنياب الزمن ووخزات المواعيد والكسب.. وأنساهم حين أغرق في دغدغة الخمرة الساخنة سأنساهم على الأقل حتى مطلع الفجر، ستذوب أشكاهم في إشراقات الكأس الأولى، ثم يصبحون وهما لذيذا.. وأنا أتجرع خيوط الشروق ووهجة الشفق في الكأس الأخيرة.
كالعادة... الكأس المعتادة!

الرفاق هنا أشخاص يتحركون في إطار قصّة سريالية، ينهضون من ضبابية الانسياب البشري.. أشخاص لهم مميزاتهم وملامحهم، فيفردون عن القطيع!!

أراهم يتهاوون في قرارة الكؤوس المترعة رجوما تشق السماء. رؤوسهم أول ما يشدّ الانتباه، ترتفع، تنخفض، تتمايل، نكبر، وتصغر، أراهم كالدراويش في لحظة تراجيدية، كالمرتعشين في «حضرة» صاخبة وسط الصحراء.

هم يثرثرون ويتحدثون، ويعيدون كالغرابيل،- وكلّ مرة أدخل أسرارهم بعمق تهجم عليهم الذكريات والمآسي غربانا سحما فيحتمون بالخمر» يهربون منهم إلى الخدر والقيء والثرثرة.

... بواطنهم التي ينشرونها كل ليلة على أذني أعرفها بكل جزئياتها.

ذاك الأسمر المخدوش الوجه، منظره في الصحو أو الغيبوبة مقرون بعبارته المتوهجة : «خلقنا للعذاب.. أتينا من هناك هاربين من الأرض والشمس فبصقتنا الأرض وصبّت علينا اللعنة.. هربنا من القطرة ووقعنا تحت الميزاب» وذاك الشيخ المتهدم القامة والأسنان، حفرت على جبينه جمل خافتة متقاطرة، تمزق حنجرته كالسكين عندما ينتصف الليل وترقص في جدران رأسه شياطين الخدر : «أعود من آذان الفجر.. ها ها!! تبكي زوجتي.. تسعل عنيفا ثم تبصق الدم وتلعنني، أحيانا تصوبني ثم تحنو عليّ كالطفل، ثم تدخل الفراش القذر.. الأطفال ينبتون في بيتنا كالفقاع. ها ها! لا تعرف من أين أتوا.. المساكين تلوى أعناقهم كزهر خريفيّ»..

صوته الآن يصلني مهتزا محشرجا كشلال من تعاسة أو صوت ناي تعبث به ريح شتوية :

«ابنتي الكبرى، قلت لها : موتي.. موتي.. لا تفعلي هذا.. كنت أعرف أنهم قساة على الأطفال! أنا المجرم شربت حياتهم وخبزهم في هذا البطن الدائم الاحتراق.. مزّقوا لحمها الطريّ بأظافرهم العفنة، الوحوش، دون رحمة.. ثم لوّح بقبضته في الفراغ متوعدا هادرا كالرعد :

«لو رأيتموها أمس وصدرها الغضّ يهتزّ تحت الشهيق

- سوسن ! سوسن..حبيبتي..»

امتدت يده المرتعشة الى الكأس، واختلط هدير الخمر السائلة في جوفه مع غصّات صدره الملغمة ثم همد فارتطم رأسه على أديم الطاولة الخشبي وقهقهات الرفاق حوله صارخة مدوية، هم دائما كذلك يضحكون رغم الجمر بين ضلوعهم، ورغم الحزن المقرفص على شفاههم :

- هات أخرى يا «قرسون»

الجالس أمامي لا أعرف عنه شيئا.. شخص محاط بأسلاك الصبر الشائكة الحديث معه صعب وحدود صمته كثيفة كشعر لحيته المهملة، لا يضحك ولا يثرثر، يشرب حتى تنتفخ عيونه القزحية، ثم يتخبأ وراء دخان سجائره المتتالية. صديقه الوحيد قط سمين لا ينفكّ عن مداعبة فرائه الأسود اللامع، يقتسمان معا صحن الفول، أو شريحة اللحم المشوية الزفرة، أحيانا يلوك قطعة لحم أو حبة فول ثم ينزعها من فمه ويرميها أمام القط دون أن يبتسم أو يشمئز.

رحلته في الداخل هجرة مستمرة لا تنتهي، هو مسافر زاده الصمت والصبر! هذا المساء لاحظت يده تجوس في الفراغ، تبحث عن قطّه - الحميم حتى إذا كمشت أصابعه التائهة العدم واللاشيء، رفع عينيه الى صاحب الحانة الأصلع، وعلى وجهه المفجوع سؤال..

- لقد مات القط، قتله البرد ليلة البارحة، وجدته أمام الحانة جثّة هامدة...

دارت عيناه واستقرت على مكان ما في الجدار، وتسمرّ لحظات كأنه مومياء، قد تكون لحظات خشوع وترحم على الراحل الحبيب.

ثمّ صبّ كأسا في جوفه وأشعل سيجارة.. انهمك في مطاردة دخانها اللولبي في نسيان وسلوى...

- هات أخرى يا قرسون

قال الى النادل الأشقر : أنت تشرب بسرعة مهولة، الليلة.

سكت، فانقلب على أعقابه يائسا من اجابتي، معتذرا عن تدخله في شؤوني.

- «نذل، وقح، أخذتك من الشارع، أدخلتك بيتي وأغدقت عليك أموالي، أتجرأ على هذا الكلام، لا أريد أن أرى وجهك ثانية في المنزل أو في المعمل على السواء، يحبّ ابنتي ها ها ها! أعطوه كراع مدّ إيدو للذراع».

- نفايات الشوارع، كان من الأحسن أن أتركك تموت تحت المطر والبرد والجوع.. اغرب عن وجهي».

أبي مات ذات يوم حار في حانة ما... باع كل شيء في المنزل... الكراسي العتيقة، الطاولات، قلم حبر لي سرقته لزميل يقاسمني المقعد، أذاب كل شيء في الكأس حتى الملاعق الخشبية التي ورثناها عن جدتي، إخوتي تسعة، جيش من المتسولين يذرعون شوارع المدينة، يمدّون أيديهم الصغيرة، يمدونها ويسحبونها ليتقوا البرد والنظرات الجامدة، يتكدّسون في الغرفة الوحيدة وأسنانهم تصطك أمام هجمات الحمّى والجوع وينتظرون عودة أمّي التي حملوها مكتوفة اليدين الى مستشفى المجانين.

لأني متشرد فأنا جرثومة معدية يجب تجنّبها، لم أكن مذنبا في حقيقة الأمر ثم هل نستطيع أن نمنع قلوبنا من أن تخفق بالحب.. لقد أحببت «فوزية»، سيدتي «فوزية» ولكني حاولت أن أخنق الصرخة وهي تخرج من القلب كالوليد الرائع، منعتها من الحياة والنموّ... أترعت بحبها حتى الأذنين ولكنهم صلبوني على أعواد الفقر والتسكع أمام بوابات النسب والشرف... ولكنّ الشمس أشرقت ذات صباح في عينيها، وسالت حمرة جذّابة على خدودها الشفقية... هي التي قامت بالخطوة الأولى... أمسكتني من يدي ووجدت نفسي أضرب معها في جزائر بعيدة، أرضها قبلات حارة، وسماؤها وجنات عذراء فحول، أرض بدون جلادين، وسماء مشرقة شاسعة يتنفس فيها البشر برحابة.. تلك كانت جزر الوهم.. أرض الحلم وسماء السراب، نركبها على بساط الريح.. تلك جزر تخلفها خفقة أولى صادقة لقلب يافع أو تكسيرة لجفن كثّ متراخ، أو تخلفها حمرة وهاجة في حانة ما في ركن من أركان مدينة حزينة.

«فوزية لم تخلق لك.. ها ها ها! لستم من طينة واحدة... أنت لعين وناكر جميل.. لقد أغويتها أيها الحقير.. حرقت عواطفها الطريّة لتصل إلى أموالي.. أعرف نواياكم ايها الكلاب».

ضربت على الطاولة حتى رأيت الكؤوس «ترقص بلا ساق» ورفعت عينيّ: الكل ينظرون إليّ، يمدون أعناقهم كالإبل العطشى وحتّى صديق القط الصامت يبتسم في سخرية مرّة. طوّقني الخجل معتصرا بقايا دمع حائل في عينيّ.. ووجدتني أخفي وجهي بين يديّ وأبكي.. أبكي كطفل فاجؤوه يخرق عادة عائلية محترمة. ومرت لحظات رفعت إثرها رأسي فإذا نقر الكؤوس يعود، ومعه عواصف الثرثرة والرفاق يتخبطون في جحورهم كالفئران داهمها السيل. وأحسست بخيط من الطمأنينة يتسرّب الى داخلي، لطيفا مثل يد أمّ حنون تنتشلني من أحزاني.

يا حانة الضباب... أنا عائد إليك.. في جوفك قلوب تخفق بطيبة وحرارة تحت ركام الثرثرة والقيء.. يا حانة الضباب انت السفينة ونحن البحارة وموج البحر يزمجر كسنابك خيل قوقازية، احمينا من البحر، من الغرق إن تعذّر انزالنا على الشاطىء.

شجرة وسط الفيضان

... بداية الدوار هاجمته فجر يوم رمادي، استيقظ في ساعة مبكرة والسماء صوف معتم ينوء تحتها زجاج النافذة، شعر أنه يتنفس في عسر وأن جبلا من رصاص يتراكم في عمقه، وبدا له أول الأمر أنه يجتاز متاهات حلم مزعج ولكنه تيقن انه صاح عندما لمس حواشي الغطاء بأصابعه، وأعاد اللمس بأصابع قدميه، كان الغطاء ساخنا مترهلا... الغطاء يبتعد عنه والسماء وراء النافذة قريبة وخانقة، غرفته اسفنج ينضح باللامعنى.

كمش رجل السرير فلذعه صقيع الحديد وعندئذ وقف على حقيقة مدهشة : الاشياء تتوارى نافرة خلف ستارة من تحد فظيع. وفي الخارج كان ضجيج السيارات خافتا كصراخ غريق في جب عميق، وتعجب من أن يفقد أزيز المحركات حدته بهذه السرعة المذهلة وهذه السهولة الغريبة، فداهمه خطر عنيف، أن يندفع ويرتمي خارج الجدران حتى يسمع السيارات وهي تهدر وحتى يتنفس اسمنتا ومازوطا، محاولة النهوض انهزمت أمام سريان خدر ثقيل، تأودت أضلاعه حتى صارت مطاطا أنهكته الشمس، وعظام رأسه تتداخل متعانقة، لم يعد يحمل رأسا بل قبة خربتها القنابل، جوفها يمور خطوطا وزخارف عربية. أسئلة وخواطر عديدة تدفقت عليه من كل جانب طانة كالذباب. أبوه يغيب عن البيت ولا يعود الا بعد أسابيع طوال، أمه تبكي حين يرجع أبوه الذي يكتفي بنفخ أشداقه المزروعة شعرا وشحوبا. وهو صغير يتساءل عن سر تغيب ذاك وبكاء تلك. واليوم يطرح السؤال ولكن بطريقة أخرى : لماذا تبكي أمه؟ كم كانت غبية؟.. جده مات ذات يوم، حرقت أعماقه الكحول وأشياء أخرى تحدث عنها كثيرا طوال حياته ولا يذكر منها الا كلمتي : سل... فناء... رفض المؤدب أن يصلي على جثة جده المعفّرة بالوحل والقيء، وكان الوحيد الذي سالت دمعاته والتراب ينهال على الجثة المتعبة، وعندما عاد من المقبرة بصق على المسجد ولم يدخله بعد ذلك.

على الكرسي الخيزراني معطفه الملوث برشاش المطر والطمى، وفي المطفأة أعقاب سقاير «أرتي» مسحوقة، ولكنها بقيت كسرب من أقزام منتصبة على شكل دائري... أقزام تتحرك، تتراقص كقوم من الصوفية ساعة الوصل، وفوق المطفأة صورة لفتاة مجرية بريئة العينين، انتزعها من كتاب قديم. أعجبته بسماتها الثلجية وخداها الملتهبان... واليوم هي ألياف وأصباغ.. ألياف وأصباغ وكفى، لا شك أنه تسكع البارحة طويلا بعد أن قضى ساعات طوالا مع طالب روسي أمه «راسكولنيكوف» في كتاب «الجريمة والعقاب».

وفي لحظة ما وهو مستغرق في القراءة كور يده ولوح بها في الفضاء. لم يكن

«راسكولنيكوف» مجرما البتة. والآن «راسكولنيكوف» حبر وكلمات شوهت ورقا أبيض.. ورقا فارغا.. فارغا تحطم الرباط المقدس الذي كان يشد كلا الى الآخر.. وكتب أخرى مل أشخاصها وهم يجرون تحت أصابعه وعينيه كالفئران.. ولم يكن له مناص من أن يخنقها وبعضها يحبو والآخر ينتظر الموت في خضوع كريه.

منذ أسابيع شعر أن «سلمى» صخورا مخززة يرتطم بها ويعود دامي الجبين ولا يستطيع مسح الدم، و «سلمى» بعثت له أمس رسالة.. وسلمى تحبه.. وسلمى زوجة رجل آخر.. وكلمات أخرى اجران فارغة تصفر فيها الريح.. ورسالة سلمى ترقد تحت المخدة تنتظر الافتضاض.

«غدا آتيك لأمزق ستائر الغربة المضروبة حولك، وأمسح الرمد عن عينيك.. سنمشي معا حتى تتهرأ أحذيتنا، حتى تموت امتدادات الشوارع في أحداقنا، كل شيء فيك جميل : صنان إبطيك وعرقك المالح يتحسب، وعيناك تهويان في الحزن كالرجم».

...لن نأكل في مطعم كبير بل سنكتفي معا بصحفة «كفتاجي» يشتعل زيتها وتلتهب وجنات بطاطسها. سندخن أتفه السجائر. ولكننا سنكون سعداء.. وما أصعب أن نكون سعداء عندما نحس أسنان التماسيح حادة ترحي الأعصاب والنخاع»..

كم أنت غبية تزدحم الأحلام في رأسك الصغير وينبت الوهم على جدرانه طحالب مريضة. قد لا يستغرب منك فأنت التي قلت لي يوما : «الحب نتانة متبادلة، وقد يكتبها المراهقون بالخرء على جدران المراحيض، ولكتها نتانة جميلة وضرورية»..

أية طيبة في ابطي، رائحة عرق زفرة تقلب الامعاء وتدير الرأس، والسجائر التافهة تأويل لقلق نمتلىء به معا ونحن نتصفح جدران السجن المحيطة بنا. : شفتاك أسوار الزنزانة ونهداك سرير الصقيع!

كل شيء كما نظنه جميلا حين يشاهده الواحد منا بعين الآخر. سنابك الخيل تجر العربات مع الفجر، وسمفونية الجلاجل الصدئة أنشودة حب. كان كل شيء جميلا أو هكذا كما نظن على الأقل. أحيانا كنت أنساك، وأغوص في صدفتي مقوورا، كنت ألياقا وأصباغا أنت الأخرى كهذه الفتاة المجرية. قلت لها يوما : كل شيء هنا متاريس ضد القلق والعزلة... الكتب قلق نخلق منه واليه تعود ولكنها صفقة أقل خسارة من الصفقات الأخرى، والأبناء صناعة قديمة، السياسة رداء لامع ولكن صاحبه يرتعش، وأجسام النساء أوراق يأكلها الاصفرار كالكتب.. وغبي من يتدثر بأهداب امرأة!».

لقد كنت تكذبين علي وكنت أكذب عليك، والنقود التي تعاملنا بها كانت مزيفة. لم يكن وقع السنابك سوى أجراس الخطر، تنذرنا أن الوحش الذي رمانا بين يدي بعضنا بعضا

سوف يظهر وينفث على وجودنا دخانه ولهيبه، سيهدأ قليلا وراء هفهفة القبلات وحرارة العناق وبعدها سيندفع محطما زجاج النوافذ ليكسر ضلوعنا بقبضته الحريرية ويمتد أفعوانا في أعماقنا نسمع فحيحه وهديره وهو يشخر نائما. وسنعود نلهث وراء أردية جديدة. ألم أقل لك يوما :

- «سأكسر قلبك فأنا طفل صغير يكره وجها واحدا وتضجره لعبة واحدة!»

ضحكت وشعرك المنفوش في فمي أسلاك شائكة :

«وأنا امرأة مجربة... خبيرة في ترويض الشياطين والمردة!

وقلت لك وفي العمق يمتد بحر آسن من الضجر:

- لماذا تركت زوجك وارتميت بين أحضاني السرابية.. لماذا لم تروضي زوجك؟

قبلتني على الجبين قبلة امرأة في الاربعين. كنت خائفة متلفتة، وكانت شفتاك المشنقة الوحيدة لاعدام السؤال الجاثم على شفتي.

لقاؤنا الأخير كان يوم السبت، غرفتي كانت مهوشة، مهزوزة الاثاث، كرسيي الخيزراني يقبع في ركنها شيخا متاقعدا.

- «كم هي رائعة غرفتك يا حبيبي! رائحتها تنز بالحياة!»

أثارت في ملاحظتك احساس أني مرتبط بك وأنك قدري، الغثيان أمامي وأنت ورائي وأنا أقف مشدودا كالسهم في معطفك الضيق :

- «كم هي قصيرة ساعات لقائنا.. زوارق بخارية أو ومضات برق صيفي!»

في التاكسي الذي ركبته واياك، كنت أتوسد ركبتيك، وشعوري أننا جثتان تنتظران الدفن، - تمنيت ألا يقف التاكسي وأن يزيد السائق في السرعة، فربما اصطدم بسيارة أو بجدار أو بعمود فينطلق السهم. ولكنه كان يسير حسب رتابة الأضواء الباهتة.

وعندما ودعتك وعدت الى غرفتي، كان جسمي قشرة تين أشعلتها الشمس، وفي خياشيمي رائحة أوراق ميتة، وعندما نظرت في مرآتي المشروخة كان وجهي أصفر هجرته قطرات الدم وخندقت فيه الاحزان فقررت أن أهرب منك، ومن الكتب، ومن عيني الفتاة المجرية، ولكني اكتشفت وأنا انفض الغبار عن حقائبي أن دمي مباح لأية امرأة مثلك في كل أرض ألجأ اليها لأني لا أكسب البديل. كنت شيطانا مرعبا يسكن جسم فاجر، ويستعصى على التعاويذ والتمائم، وتذكرت أني قلت لك ذاك المساء :

- «مصير مرعب أن أموت على صدرك.. أن أفقد حتى حياة الحزن وأنا أروم دفن الحزن بين نهديك.. لقد قرأت في كتاب لا أذكر عنوانه أن رساما طلق ألوانه وأصباغه ومات فوق صدر إحدى فاتناته».

ضحكت ضحكة عارية وقلت :

- «سأحملك جثة هامدة في صدري لندفن معا، سأقبرك بين نهدي طول العمر!».

ثم انشفت شفتاك موجنين في البحر،

وعادتني صورة «موسى» على تخوم سيناء والبحر يبتلع «فرعون»، وغرقت وغرقت. ناديتك والموج يلتهمني وصرخت فيك والاسماك والتماسيح فاغرة الأفواه ولكنك كنت خرساء وصماء. غزت الملوحة لساني تشققت شفتاي عطشا، فنهلت من جسمك. نهلت حتى أصبحت ضفدعة تريد أن تصبح ثورا. ولما أوشكت على الانفجار تركتك طافحة وابتعدت عنك مهمهما :

- مستحيل.. مستحل أن نرتوي !

وقفت أمام النافذة عارية وعلى وجهك انكسار وشيء آخر غامض وقلت :

- «من أجل استحالة الارتواء بحثت عنك وسللتك كالشعرة من بين عجين البشرية. زوجي يتصنع الارتواء، ينهق كالحمار وينام وأنا الارض تقام عليها صلاة الاستسقاء. أنا سعيدة لأني وجدتك. ماذا يحدث لو لم تحملني قدماي مساء ذلك اليوم الى «مقهى الزنوج». كنت تجلس أمام قهوة سوداء، أهدابك تحرث الفراغ. يومئذ أدركت انك بغيتي..».

- «لقد سئمت تكرار البدايات... متى ستكون النهاية؟ انك كابوس مرعب - كالحياة - لم أغنم منك الا انتظارا وقلبا للأمعاء ولهثا وراء أردية كاذبة».

أشعلت عقب سيجارة نسيت أن أكمله على حافة الطاولة فانطفأ وقلت :

- تتطلع الى النهاية.. أصعب ما في عصرنا انهاء البدايات !

تبين له ان سلمى هي الشجرة الوحيدة وسط الفيضان، شجرة تتمايل لتهوى بين اللحظة والأخرى ولكنها شجرة تقف في الماء رغم كل شيء، وبامكانها أن تستمر دقائق وربما ساعات قبل أن يأتي السيل على جذورها.

والحلم بقية

قصة بقلم : فتحية الهاشمي

[هيلا يا السمّرا، هيلا، من شفناك حبّينا...]

الفجر الأرجواني يدغدغ العينين الناعستين... رائحة خبزهم تحتلّ المكان، هناك، ما زالت مضاربهم... شدت الجسم الصغير الى الامام، بعض الأضواء ما زالت تتراقص ظلالها.. رمشت قليلا، ها ان نسمة مارقة، اطفأت احداها...

النبّاح يبتعد حينا ليقترب حينا آخر..

أرهفت السمع، مأمأة، صياح ديكة، في الأفق البعيد سحابة غبار، اقتربت أكثر فأكثر..

ها أنّهم عادوا..

السيارة تعانق الطريق الأسفلتي..

حمحمة وصهيل...

وجهك المقدود من الصخر، في لونه الحنطيّ شدها الى الأفق (الأرجواني)..

عبأك عينيها الناعستين باللون الحالم، الفرس الأدهم بانفراجة قائمتيه، كان يملأ المكان، مدت كفها، مسحت على الخدّ المختلج، الرغوة الرخوة أغرقت الأصابع الدامعة..

تسحبت الكفّ الى الأعلى، قليلا، قليلا.. بعض شعيرات من العرف الماثل وأصابع (...)

رفعت عينيها الى العينين المسلطتين عليها في نظرتهما المتعالية، حركت رأسها ذات اليمين وذات الشمال، غامت نظرتها الحالمة، النبّاح يقترب أكثر فأكثر...

- انهضي ! انظري ما أجمل اطلالة الفجر !!

لم تكن نائمة، بيدها سكنت بضع شعيرات من العرف الفاحم... رائحة العرق القوي الأخّاذ مازالت عالقة باطراف أصابعها، حيث انفرجت القائمتان، ما زال السّائل الأصفر يغطي الرقعة المبللة..

- لست نائمة ! ها أنّ رائحة فرسه ما زالت تزكم أنفي وعيناه ما زالتا تصيباني بالغثيان..

سوف ألحق به...

امسكت بمقبض الباب، همّت بفتحه، أمسكت بها صديقتها، صاحت بها :

- لم أكن أعلم أن حالتك ستسوء الى هذا الحدّ!

حدّقت في الوجه العسلي، مدّت يدها الى الصّدر، أمسكت بالقلادة ذات المعدن الأصفر، القرطان المتدليان شدّاها بلونهما الناريّ، الجدائل المرمرية باهمال اجتنبت النظرة الناعسة :

ـ رائحة الطّيب والعنبر ! انّها رائحته المفضلة !

ـ أيّ طيب وأيّ عنبر ! لقد جنّت المرأة ! أنت تعلمين أنّ شعري لا (يصلح لا للدّنيا ولا للدّين) عن أيّ ضفائر تتكلمين ؟

امالت رأسها الى الجانب الآخر، ألقت به على بلّور النافذة... بسبّابة يمناها، رسمت أشكالا على المساحة الغارقة في الضباب... ترنّمت [زينوا المرجة والمرجة لينا..] توقفت فجأة، والسببابة المتسحبة استكانت في صلاة مكبوتة... المسبحة بحباتها السوداء تحدث صوتا كوقع حبّات المطر.. تك، تك، تك] الحبة الأخيرة استكانت بين سبابته والأبهام، عينها المترقبة تعلقت بالحبّة الحبيسة.. ترى متى يطلقها ؟

كانت صديقتها ترقبها في حيطة وريبة، بينما انزوى السائق في ركنه القصيّ..

شردت في الأفق البعيد، الشمس تغازل الخضرة المترامية... ها هي قاب حلم من الوصول...

بغداد !

وأخيرا تمنّت لو تسجد وتقبل الإرض الولود... تمطّت، عبّت الهواء عبّا...

صديقتها الجاثمة غير بعيد عنها، رمقتها خلسة...

تفطنت اليها، لم تبال بها، كانت ثملة، تعاني من حالة حبّ (حدّ التّخمة)...

تمتمت [مسّاك الله بالخير يا مدينة بغداد...]

* * *

المسبحة السوداء بحباتها اللماعة، ملقاة باهمال على منضدة الزينة...

ارتعشت، راقبها عامل الفندق بحرص :

ـ تحسين بالبرد ! يمكنك تشغيل (التّسخين المركزي) !

ابتسمت له في بلاهة، الحبات السوداء تخز كفها القابض على الحقيبة في استماتته الأخيرة..

ـ أيمكنكم تمكيني من غرفة أخرى !

ذعر العامل وتسائل، ماذا بها ؟

أسرع يزيل الستائر، اللون الرمادي المتلألأ شدّها بعنف الى أعماقه...

الشمس المستحمة في اللّون الداكن أعمتها أشعتها...

انتفض الفرس، تناثر الماء حينما حرك رأسه، ذراعك الممتدة اليه بقطعة السكر أصبحت قاب نظرة منها، حبيبات الماء الملألأة على الجلد الخمريّ أغرتها بامتصاصها...

اشتدّ القرع على الباب...

فتحته ثم عادت الى مكانها من الشرفة...

هزّتها صديقتها :

ـ لنذهب !

ـ الى دجلة !

بل إلى الخارج ! علينا أن نتعرف على معالم المدينة أولا !

ـ عليّ التعرّف عليه أولا ! عليّ ايجاده !

التصقت عيناها بصفحة الماء الرماديّة...

في البهو خليط من اللّكنات واللّهجات والأزياء والملامح...

زاغت نظرتها، كانت تبحث عنك، عن الوجه الحنطيّ بملامحه الحنونة في قسوة أو القاسية في حنان...

رائحة القهوة الممزوجة (بالهيل) غمرت المكان، أصوات كثيرة ولغط، والحمحمة تغطّي عليها كلها... كانت تحسّ بالضياع :

ـ الأخت شاعرة !

ـ أنا عاشقة !

وقغرت الأفواه وشدهت العيون...

تداركت صديقتها الموقف :

ـ نوّار دائما هكذا ! هي في عالم والعلام كلّه في (عالم آخر)

شدتّها أحرف الإسم، تهجتّها حرفا حرفا (نـوّار)...

انتفضت، كانت الحروف موسيقى تنساب من الشفتين المتفرجتين في شبه ابتسامة...

مدّ أصابعه المتملكة، قبض على الأصابع الجذلى، تبعته وصوت صديقتها يبتعد، يبتعد، يغرق حدّ التلاشي...

(دجلة) يغمّس مياهه في ابطيها، يخبّىء حكاياه في ثنايا كفّها العاشقة

* * *

أمام باب الغرفة، تسمرّت صديقتها، وضعت يدها على فمها، الماء المتقاطر من ثياب نوّار لطّخ الممر، فردة الحذاءالملقاة باهمال، أغرقها الطين والوحل، خصلات شعرها التصقت بجبينها...

هل سبحت في هذا الطقس البارد ؟

دفعتها الى الداخل، أغلقت الباب خلفهما بعد أن تأكدت من خلو الممر..

الماء الساخن ينساب على الجسد الصغير، أمسكت بمعصمها، فركته بأصابعها وهي تعضّ على شفتيها السفلى، انتبهت صديقتها لحركتها، جنبت المعصم بسرعة، شهقت، الحمرة تعلوه، دققت النظر أنها آثار أصابع قوية، خشنة، عنيفة...

حدّقت فيها، لم تسألها، رفعت المعصم الى أعلى ثم أرخت اليد المستسلمة...

ـ كنّا نسلّم على (دجلة)...

ارتبكت الصديقة، وتحيّرت، لم تعهد صديقتها (مجنونة)...

وضعتها تحت اللّحاف، غطتها، أمرتها بعدم مغادرة السرير...

- اتركي النافذة مفتوحة، سوف يصعد إليّ...
ضربت الصديقة كفًا بكف وتمتمت :
- (إن شاء كلّ شيء باللّطف) !
* * *
في الغرفة المجاورة تعالى صوت الغناء :
[صبّ الرّشراش والنّوغزيرة، حمّة ما جاش راني في حيرة...
تعالت الزغاريد وتعالى التصفيق والصبايا يرقصن على صوت الدربكة، ورائحة البخور تصيب الجميع بالدوار، وخلف الباب (تضرب المواعيد) وتولد قصص وحكايات...]
تخيّرت مكانا منزويا وتكوّمت على الكرسي...
سحب كثيفة عمّت الغرفة، روائح نفاذة...
- انّها لا تدخن !
هزّتها اللكنة الغريبة، اختلج صوتها
- كيف عرفت ذلك ؟ جلّ الحاضرات كنّ يدخنّ بشراهة الرجال، فما أدراك انّني عكسهنّ؟ ثم آخبرني من منحك حق التكلم باسمي؟
- هذا ؟
صعقت للمشهد، كان الوشم يعلو قلبه تماما، يستكين وسط غابة كثيفة من الشّعر الأسود، تلفتت الى كل الجهات، ثم حملقت في الصدر العريض، ها هو وجهها بتقاسيمه الدقيقة يلتصق بالقفص المنتفض من شدّة الانفعال...
مدّت أصبعها المختلجة الى القميص المفتوح تروم تزريره، أمسك يدها المتسحبة، قبّل باطن الكفّ أطراف الأصابع، همس :
- جئت من الحقل للتوّ
كنت ألقّط بضع غيمات، وعبّأت كيسا باالياسمين.. لأرتّب كرسيّا
ستجلسين قليلا، أليس كذلك ؟
هاتي أقرأ لك كفّك :
هذا جدول من حنين، وبقايا قبلة علقت بباطن كفّك، واثار تلويحات كثيرة كنت ترسلينها لسنواتنا الجميلة... هذا رائحة تبغ ورائحة تراب من الأرض التي توقفنا فوقها قليلا لنبدأ ضحكة قصيرة... هذا طريق طويل، سأحملك الى آخره، ويبدو مسيّجا بالتّوت، والأساور، وزهر الليمون...
(مسيّجا بأصابعك وصلواتي (1)
تصاعدت آهة من الركن المقابل :
حبك وسهر اللّيل ما نجمت
لزّوني عالدخان وتعلمت(2)
أحسّت بلفحة باردة، انتبهت ليدها الملقاة على الأريكة المحاذية لها...
أين ومتى اختفى ؟
آثاره ما زالت تدلّ عليه، التجويفة المرسومة على الأريكة الجلدية تقسم أنّه كان جالسا فوقها، مررت أصابعها على المكان الذي لم يفقد حرارة صاحبه بعد، بحثت بعينين

زائغتين عن [رجلها الشبح]، لم تتجرأ على مناداته (حبيبها) بعد !

* * *

سيارة الأجرة تجوب الشوارع (بجنون) تتخطى المنعرجات والمنعطفات من أقصى اليمين الى أقصى الشمال، وهي تلتصق بالمقعد وتتمتم تالية ما تيسّر من قصار السوّر...

على الجانبين آثار دمار وبقايا ابنية.. هناك في انحناءة الشارع نحو اليمين، مطعم صغير، بجانبه نخلة، نصف محترقة،... صعدت نظرها حتى أعلاها، ثم صرخت بالسائق :

- توقّف.. توقّف حيث أنت !

صعق السائق والسيارة تنتفض من شدة ضغطة على (الفرامل)...

قفزت الى الشارع وصديقتها تحاول الامساك بها من الخلف..

اختفت في المنعطف الحلزوني ونداءات صديقتها تطاردها كاللعنة. لم يكن وسيما بما في الكلمة من اغراء، لم يكن فاتنا، ولكنه كان رجلا...

تربعت على الأرض، أمامه تماما، كان ينكث الجمرات بعصاه، ووجهه المنحوت يشرق بالضوء.. نظراته تجاوزت المدى، لم تتكلم، لم تتجرأ على تحريك شفتيها..

أمسك بالجمرات في كفه المعروقة، سحقها والشرر يتطاير منها، أسرعت تغطي كفّه بكفها، احترقت، التهب جلدها :

- ها أنّنا وحدتنا النار !

- ان من أشعل النيران يطفئها!

(قالت العاشقة) :

[لشفتيه مذاق اللوز، وفي حضنه الدافىء روح أمّي وشالها المطرّز](3)

وفي حضنه استكان رأسها الصغير و (كفّه تنهمر بالبكاء).

....

تمطّت، تثاءبت، أحسّت برائحة غريبة تملأ غرفتها.. شرعت عينيها على (دجلة)، ما زالت الأضواء ترشف زبده، أعادت نظرتها الى حيث تمددت، على الأرضية المغطاة بالسجّاد آثار خطوات، يبدو أنّ صاحبها قد استحم للتّو، التصقت أكثر باللّحاف، وضعت المخدة على وجهها : من يا تراه اقتحم عزلتها، همّت أن تطلب الاستقبال، ثم تراجعت في اللحظة الأخيرة، خوفا من السّين والجيم والفضيحة...

تسللّت على أطراف أصابعها، حملت بيدها شيئا لم تميّز ما هو وتسحبت باحثة في أرجاء الغرفة، ثم قادتها الرائحة الأخاذة الى الحمّام، كانت رائحة صابون الحلاقة تأخذها في رحلة

العمر... توقفت أمام (الدّش) ما زال الحضور الرجالي يملأ المكان، تطلعت في المرآة، البخار يعلوها... تساءلت هل يمكن أن يكون هناك بابا آخر يؤدي الى غرفتها وهذا لا يمكن أبدا !

ألقت بجسدها المستنفر على الفراش، انتفضت وهي تصرخ من الألم،،،

على اللحاف الأبيض، لمعت عين حمراء، تأملتها جيدًا، لم تلمسها، حركت اللحاف، انقلبت القطعة المعدنية على الجهة الأخرى، تأملتها جيدا، كانت خرزة سوداء بعين حمراء تلتهب كالجمرة، أمسكتها، مرّرت أصابعها المرتعشة على المعدن البارد، أحسّت بقشعريرة وكأن العين تراقبها، ألقت بها من جديد... ثم تأوهت :

ـ من أين جاءت؟ لا يمكنه فعل ذلك بي !

أمسكت بجهاز الهاتف، طلبت من صديقتها الحضور ساعتها الى غرفتها، كانت تعاني من حالة ذهول لا توصف...

فتحت الباب لم تتكلّم، أمسكتها من يدها، سحبتها الى حيث ترقد القطعة (المشتعلة)، اللّحاف حيث هو، «المخدّة» حيث هي ولكنّ الخرزة اختفت !

صرخت، رمت باللّحائف على أرضية الغرفة، اقسمت بكل الايمان أن القطعة كانت هناك، بكت، أخذت تجذب شعرها وتئن :

ـ لست مجنونة، صدّقيني !

تركت الصديقة حيث هي، وأغلقت الباب وراءها...

أحسّت بشيء بارد يخرها في صدرها... كانت الخرزة السوداء بعينها المحدقة فيها تتدلّى من عنقها، صرخت، ولولت، ثمّ وفي حركة مجنونة أمسكت بالخيط الجلدي تروم قطعه والقاءه بعيدا عنها وما كانت تهمّ بفعل ذلك، حتى أحسّت بقبضة فولاذية تمسك بيدها...

كان هناك قاب لم منها... أنفاسه الهادئة ونظرته الواثقة، تخدرانها !

شدّها الى حضنه.. بعض الشعيرات دغدغت الوجه المستكين، أصابعه غازلت سنابل القمح فوق رأسها، أحسّت بشفتيه تقبّلان خصلاته، ثم تنحدر الى جبينها، وجنتها، عنقها، اختلجت كعصفور في يوم قارّ... منذ متى لم تعرف هذه الأحاسيس، ربّما منذ الأزل، ربما منذ أغوت حواء آدم أو منذ أغوى آدم حواء...

كانت تتقاذفها رغبتان، رغبة تأمرها بتركه يواصل مغازلتها ورغبة أخرى تدعوها الى التعقل... تنفست بعمق، حاولت صلب عودها ثم أمرته بالإنصراف، دفعت يده الممتدة اليها برفق، لم تنظر اليه، فقط طلبت منه أن يبتعد عنها، كانت بحاجة (لهدنة) مع مشاعرها...

لعنت ضعفها، مشاعرها ثم سكنت...

* * *

باحة النزّل تودع زوارها، أنفاسهم المتلاحقة تلهب جدرانها، لشدّ ما تكره هذه اللحظات... حملقت في المكان، في الوجوه المختلفة الأشكال والألوان، حاولت أن تبدو متماسكة...

من الركن القصي لذاكرة غلّفتها الأحزان، انبثق صوت أمها:

[شيّعتهم بالعين شيّع شيّع / الفم يضحك والدموع تفيّع].(4).

وفاضت الدموع والماء الحار ألهب وجنتيها... انتحبت القطعة الرابضة بين الضلوع...

وتخطفتها الأحضان على وقع (الدبكة) في الشارع... اللّيلة اكتمل القمر...

الحافلة تبتلع الطريق... على مرمى العين بانت بعض النقاط المضيئة، تساءلت: ربما هي مواقع عسكرية أو هنّ فتيات خرجن (يشعلن نار الغريب) يقتبسن منها بعض الدفء، في انتظار الغائب...

القمر (بدر) وللقمر أسراره...

ولبغداد اللّيل...

وللّيل رائحة الملح

وطعم المنفى...

تكدست في الكرسي الخلفي للحافلة، سرّحت نظرها في الأفق البعيد، طاردت القمر، بحثت عن نجمها (نجم السعد) وتنهدت: (أين السعد)؟

الثمر يستحم في حدقتيها والأفق المترامي يشهرها بالوحشة، ضمت بيديها الى صدرها، دفنت رأسها بينهما ولم تدر كم من الوقت مرّ، كانت تشعر بدفء وبأنفاس غريبة تلفح رقبتها، مدت يدها...

تحت ضوء القمر لمع النّسر المتحفز للانقضاض على فريسته، فوق ظاهر الكفّ، شدها الوشم المتوحش، تفرست فيه، ثم تذكرت انها كانت تجلس وحدها في الكرسيّ...

انتبهت للمعطف الرجالي الملقى في عناية فوقها، رفعته الى ذقنها، منه فاحت رائحة الجدود الأولين... (ياللّه تنام ربّما..) كانت تختلج...

ما زالت العينان تمطران دهشة.. وانتظارا(5).

ما انكسرت وريقات الغيم التي لفّعت بدثارها النرجسات، حتى كان نشيج النرجسات الطفلات يشق الغيمات، بقيت زهرة الفتنة طيّة كشغاف الشفة السفلىخ، متقدة كجذوة لم تحرقها نار الخيبة!

حرائق الجسد ما طالت الروح، وحرائق الروح لم تطل الجسد... حتّى حين وهنت الروح باثقالها، واشتعل القلب شيبا!

الهوامش :

1 ـ مقطع من قصيدة (عتبة بيت) من مجموعة الشاعر الفلسطيني ابراهيم جابر ابراهيم بعنوان (متفق عله)

2 ـ مقطع من أغنية شعبية تونسية

3 ـ مقطع من قصيدة الشاعر الفلسطيني ابراهيم جابر ابراهيم بعنوان العاشقة

ـ مقطع من أغنية شعبية تونسية

5 ـ مقطع من قصيدة (نقش على وسادة) للشاعر الفلسطيني ابراهيم جابر ابراهيم

محطـــات ثقافيـــة

متابعات ثقافية

إعداد : أبو خولة

جائزة اتحاد المغرب العربي للكتّاب

فاز ثلاثة كتّاب تونسيون بالجائزة الثانية لاتحاد المغرب العربي للكتّاب (دورة ابن خلدون 2006) وهم الأساتذة الجامعيون : عبد الحميد الأرقش - دلندة الأرقش - جمال بن طاهر عن مؤلفهم المشترك «المغرب العربي من خلال المصادر». هذه الجائزة تمنح مرة كل سنتين وقد تم ترشيح 17 كتابا لهذه الدورة.

الدورة المقبلة لهذه الجائزة ستكون سنة 2008 ومحورها هو الأبحاث الأكاديمية والميدانية الخاصة بالزراعة والثروة الحيوانية والبيئة في دول اتحاد المغرب العربي.

الشاعرة التونسية آمال موسى في جرش

في مهرجان جرش للثقافة والفنون بالأردن قرأت الشاعرة آمال موسى مختارات من مجموعاتها الشعرية الثلاث – أنثى الماء - خجل الياقوت - يؤنثني مرّتين. وقد أثنت الصحافة على النصوص الشعرية لآمال موسى وأشادت بتجربتها وبقيمة قصائدها التي افتتحت بها الأمسية الشعرية الثانية بمركز الحسين الثقافي خلال شهر أوت 2007.

عبد المجيد الحوسي يتوّج في ايطاليا

عبد المجيد الحوسي - أصيل بومرداس من ولاية المهدية - والمقيم في ايطاليا منذ سنوات حيث يعمل استاذا جامعيا مختصا في اللسانيات الفرنسية بجامعة «شافو سكاري» بمدينة البندقية، أحرز خلال هذه الصائفة (صيف 2007) جائزة المواطن المتوسطي وهي جائزة يتم اسنادها لمن يظهر كفاءة عالية في عمله.

إذاعة موزاييك في مقرها الجديد

اذاعة موزاييك يسجل موقعها الالكتروني يوميا زيارة مائة ألف زائر خصوصا من شباب الجيلين الثاني والثالث للهجرة وهي تحقق من يوم لآخر نسبة استماع عالية، هذه المؤسسة الاعلامية انتقلت الى مقرها الجديد (جوان 2007) المكوّن من خمسة طوابق بالعاصمة تونس. هذا المقر يحتضن مختلف الأقسام والاستديوهات المجهزة بتقنيات حديثة رقمية وسمعية علما بأن إذاعة

موزاييك تشغل مجموعة من الكفاءات التونسية الشابة يبلغ عددهم حوالي 65 إطارا بين مهندسين وتقنيين واعلاميين.

الميداني بن صالح في ذكراه الأولى

أحيت نفطة هذه الذكرى بالتعاون بين اتحاد الكتاب التونسيين والمندوبية الجهوية للثقافة بتوزر وقد حضر الأمسية الثقافية المخصصة لهذه المناسبة ابن الشاعر ونخبة من الشعراء والمثقفين حيث تمّ تقديم شهادات حول سيرة صاحب (قرط أمّي)، إضافة إلى قراءات شعرية وتمّ التأكيد في الختام على ضرورة الاعداد الجيّد للذكرى الثانية للفقيد والاستعداد لها بمجرد انتهاء الذكرى الأولى.

وفاة المؤرخ الفرنسي هنري أمورو (1920 - 2007)

توفي المؤرخ الفرنسي هنري أمورو (أوت 7 200) عن سن 87 عاما وهو يعتبر خبيرا في تاريخ الاحتلال الألماني.

وهنري أمورو من مواليد 1920 وقد بدأ العمل سنة 1938 في وكالة أنباء موندي في العاصمة الفرنسية باريس. كما أدار جريدة فرانس سوار. ومن أهمّ كتبه (حياة الفرنسيين في ظل الاحتلال) و (تاريخ الفرنسيين في ظل الاحتلال).

تراجم المبدعين في ولاية بنعروس

ينتظر قريبا صدور أنطلوجيا المبدعين في بنعروس في الأدب والفنّ والثقافة والإبداع. وقد سهر على إعداد هذا الكتاب الشاعر عبد الرحمان الكبلوطي بدعم من المندوبية الجهوية للثقافة.

وفاة السينمائي عصمان صمبان (2007/1923)

توفي خلال الأسبوع الثاني من شهر جوان المنصرم السينمائي السينغالي عصمان صمبان الذي يعدّ رحيله خسارة كبرى للسينما الافريقية، وهو سينمائي وكاتب روايات حيث نشرت له الروايات التالية: عامل الموانى الأسود - أطراف الخشب الإلهية.

هو من مواليد السينغال سنة 1923 تعلم القرآن والعربية والفرنسية ليرحل سنة 1946 الى مرسيليا (فرنسا) أين عمل في بعض المهن الصغرى وانتسب الى الحزب الشيوعي الفرنسي ثم عاد إلى بلاده سنة 1960 إثر استقلالها. وفي عام 1961 التحق بمدرسة السينما بموسكو وقد انجز الراحل جملة من الأفلام القصيرة والطويلة والوثائقية.

وفاة الشاعر حسونة قسومة

توفي الشاعر الغنائي حسونة قسومة خلال هذه الصائفة وللفقيد نصوص أغان متميزة نالت بها الشهرة عديد المطربات في تونس وقد تمّ تتويجه في أكثر من مرة في مهرجان الأغنية. ولعلّه يعدّ أحد الشعراء الثلاثة المتميزين في مجال الأغنية وهم عبد المجيد بن جدو ومحمود بورقيبة وحسونة قسومة.

الأستاذ محمد السويسي وداعا

رحل محمد السويسي وكأنّه اختار أن يلتحق سريعا بركب صديقه وزميله أحمد عبد السلام الذي توفي هو الآخر خلال هذه السنة (ربيع 2007) والأستاذ محمد السويسي تخرجت على يديه أجيال متعددة من كلية الاداب بتونس (9 أفريل) حيث كان يدرّس طلبة قسم العربية كلّ ما له علاقة بمجال العلم بلغة عربية ميّسرة وقد صدرت له عدة مقالات علمية في مجلة (حوليات الجامعة التونسية) كما صدر له كتاب عن مركز النشر الجامعي وكتاب ثان ضمن وزارة الثقافة في إطار سلسلة ذاكرة وإبداع وعنوانه (من وحي مجلة المباحث التونسية في ميدان العلوم العربية).

من المحيط إلى الخليج

ضمن هذا الموقع الالكتروني تولّى القاص والروائي التونسي ابراهيم الدرغوثي اعداد كتاب بعنوان «نصوص عربية من المحيط إلى الخليج» يشتمل على ثمانين نصاً أغلبها من جنس القصة القصيرة قام الدرغوثي بترجمتها الى الفرنسية ومن التونسيين الذين اعتنى الدرغوثي بنصوصهم آسيا السخيري والمولدي فروّج وصالح سويسي وفوزي الديماسي... ويرى المطلعون على هذا الموقع أن ترجمة الدرغوثي كانت متميزة وتعكس مدى قدرته على امتلاك ناصية اللغة الفرنسية.

بهاء الدين عطية في ذمة الله

رحل إلى الأبد المنتج السينمائي التونسي أحمد بهاء الدين عطية خلال شهر أوت 2007 مخلفا رصيدا هاما من الأعمال السينمائية أفلام وأشرطة وثائقية صدر أغلبها عن مؤسسته «سيني تيلي فيلم».

لقد بدأ أحمد بهاء الدين حياته الفنية مخرجا سينمائيا ثم تحوّل الى الانتاج والاستثمار في مجال السينما من ذلك أنه اقتنى قاعة العروض السينمائية (المونديال) بالعاصمة تونس.

ندوة حول مكاسب الجمهورية

بمناسبة احتفال الشعب التونسي بالذكرى الخمسين لاعلان الجمهورية انعقدت بمدينة العلوم بتونس يوم 21 جويلية 2007 ندوة بعنوان «دور المجتمع المدني في تدعيم مكاسب الجمهورية وصيانة مكتسباتها» ومن بين المداخلات ضمن هذه الندوة :

- النظام الجمهوري والدستور للسيد شفيق سعيد (أستاذ القانون بكلية الحقوق والعلوم السياسية بتونس).
- ثقافة الجمهورية للسيد صلاح الدين بوجاه عميد كلية الاداب بالقيروان سابقا ورئيس اتحاد الكتاب التونسيين.
- مساهمة المجتمع المدني في بناء جمهورية الغد وترسيخ قيم المواطنة في زمن العولمة للسيد مصطفى المصمودي رئيس الجمعية التونسية للاتصال.

أمسية شعرية رمضانية

نظم اتحاد الكتاب التونسيين أمسية شعرية رمضانية شارك فيها عدد من الشعراء من مختلف الأجيال. وفيما يلي قائمة المشاركين :

محمد الهادي الوسلاتي عبد اللّه مالك القاسمي - بلقاسم الشابي - شمس الدين العوني - رحيم الجماعي - نجاة الورغي - نجاة العدواني - ناجي الحجلاوي - علي مبزعية - محمد الرزقي - محمد السبوعي - الطيب الجمازي - عادل الجريدي - سامي السنوسي - عز الدين بن محمود - صلاح الدين الحمادي - عبد الحميد مواعدة - الهادي جاء باللّه - وليد الزريبي - فاطمة بن فضيلة - فتحية الهاشمي - عبد القادر بن سعيد - سمير العبدلي - الشاذلي القرواشي - ساسي جبيل - محمد الهادي الجزيري - هندة الطرابلسي فرح - صالحة الجلاصي - عادل الهمامي - الهادي الدبابي.

كتب جديدة

عـرض : الحبيب بن فضيلة

آخر الأسرار (رواية) لمحمد الغزالي

أصدر محمد الغزالي هذه الرواية في مطلع السنة الحالية (مارس 2007) في إخراج أنيق وقد توزعت على 28 فصلا وعلى 127 صفحة من الحجم المتوسط. تدور أحداثها في فرنسا (باريس / ليون) بين جابر ميمون وفريدة منصور والشيخ عمر والمنجي وبوزيد وحسّان والطاهر وعبد اللطيف ومازن وشابير وسفيان وزوجته دانيال وصديقتها جاكي وزوجها ريتشارد وغيرهم..

هذه الرواية تصوّر حياة العرب في فرنسا صحبة السندباد في بحثه الجاد عن العزّة والمجد في عصر العولمة الجديد. وقد تميزت بلغتها السلسة واحداثها المشوقة وبعنصر المفاجأة فيها وهو ما يجعلها رواية جديرة حقا بالقراءة لانها لا تبعث في نفس قارئها الملل بل تحفّزه أحداثها وشخصياتها على أن يكون نهما لمعرفة نهايتها.

أما محمد الغزالي فهو كاتب تونسي من مواليد نفطة إلا أنّه مقيم بباريس منذ 1977 وقد تولى نشر انتاجه شعرا وقصّة ونقدا في عديد الصحف والمجلات.

مقاربات نقدية (نقد أدبي) / تأليف جماعي

عنوان الكتاب : (مقاربات نقدية في الأدب التونسي المعاصر) ومؤلفوه هم : طارق العمراوي - محسن البوسليمي - فيصل عبيد - سالم المساهلي - الصحبي العلوي والناجي الحجلاوي. تاريخ اصدار هذا الكتاب 2007 وعدد صفحاته 190 صفحة من الحجم المتوسط. هذه المقاربات النقدية تناولت مختلف الأجناس الأدبية من شعر وقصة ورواية ومسرحية باسلوب علمي متميّز بالدقة والمنهجية والصرامة العلمية. كتاب جدير بالقراءة ويوحي بصدور مؤلفات أخرى لهذا الفريق العامل فقد كتب على الغلاف رقم 1 من سلسلة مداد.

تصميم الغلاف الخارجي لمقاربات نقدية جاء شبيها الى حدّ كبير بمجلة عالم المعرفة !!.

هل أفسّر دهشتي (شعر) / كمال بوعجيلة

في مائة صفحة من الحجم المتوسط أصدر الشاعر كمال بوعجيلة مجموعة شعرية جديدة بعنوان (هل أفسر دهشتي) وقد سبق له أن أصدر في العام الماضي مجموعة بعنوان «هذيان

تحت سماء باردة».

في (هل أفسر دهشتي) نصوص شعرية طافحة بالحنين والشجن والحلم ونابعة من الإحساس بالغربة والوحدة أحيانا ومن حيرة السؤال خصوصا انّ الشاعر يقيم في باريس منذ حوالي عشر سنوات. يقول في احدى قصائده :

الليل أوشك أن ينام / والروح مغلقة / لا حلم يقرع بابها / لا نجم يفتحها / ويضيئها / فلأيّ نافذة/ سيفضي بنا الكلام.

مانيسكا (رواية) / للمنجي بن ابراهيم

عن مؤسسة عبد الحق للطباعة والنشر بطبلبة أصدر المنجي بن ابراهيم روايته الثانية بالعنوان أعلاه في 258 صفحة من الحجم المتوسط وقد قدّم لها كلّ من رفيقة البحوري والمهدي بن ابراهيم.

ومانيسكا هو إسم البطلة الرئيسية في هذه الرواية التي أرادها صاحبها ان تسجل أبرز الأحداث السياسية والتحولات الاقتصادية التي حدثت قبل الاستقلال وبعده وتعكس خصوصيات المجتمع التونسي في تلك الفترة. فالزمن في الرواية زمن تاريخي يشمل احداثا معروفة خاضتها المقاومة ما بين 1952 و1956 ونشاطا سياسيا لزعماء تلك الفترة الحبيب بورقيبة وعلي البلهوان وفرحات حشاد. لقد اتخذ الكاتب من هذه الرواية وسيلة لتصوير الواقع وما طرأ عليه من تغيّرات احدثتها المقاومة ضدّ الاستعمار الفرنسي وما تبع ذلك من صراعات وأحلام.

من ثقب الروح أفيض

تحصلت هذه المجموعة الشعرية (من ثقب الروح أفيض) لفاطمة بن فضيلة - وهي ليست ابنتي كما يعتقد الكثيرون - على جائزة الكريديف. وتتضمن المجموعة عددا من القصائد اللافتة بجرأة صاحبتها وبسفرها في التفاصيل حيث ترى ما لا يراه الآخرون. ففاطمة بن فضيلة شاعرة تبصر بالقلب لا بالعين ومن هنا كان الاختلاف وكان التفرد خصوصا أنّها في كتابها (من ثقب الروح أفيض) تقتفي أثر الحلم والرغبة الطافحة وكان سلاحها في كلّ ذلك اللغة. تقول في احدى قصائدها :

لهنّ الجسد/ولي دمعة قد تدلّت/عناقيد جمر على خدّ هذا البلد

لهنّ الكلام المنقّى/ولي ما تبقّى/من اللغة الهاربة...

وفي قصيدة أخرى بعنوان (من يوميات حانة) تقول الشاعرة :

أعطّر شعري بماء العنب

وأحنـو

إذا لم أجد في الثمار الرحيق

على جذع دالية

نبتت في انفتاحة جرح

ودلت عناقيدها

في بياض الكتب..

لقد كانت الشاعرة فاطمة بن فضيلة خارجة عن السائد والمألوف فهي تطرق أبواب المعنى بشيء من الدهشة وبكثير من الاحساس بأهمية الذات وبسحر الجسد الانثوي.

وعموما فإن هذا الكتاب الشعري (من ثقب الروح أفيض) جدير بالقراءة لأنّ قارئه واجد فيه لامحالة لغة وايقاعا وعالما شعريا متميزا.

عبد العزيز المحرزي: صور وذكريات

صدر هذا الكتاب في اطار سلسلة بعنوان «دفاتر الأيام» وقد أعدّه نور الدين بن الطيب. وهو كتاب امتد على مسافة سنوات من الزمن انطلاقا من عام 1969 حيث تمّ ترصّد أهمّ التفاصيل في مجال التجربة. المسرحية لعبد العزيز المحرزي وجردا حقيقيا لأهم مراحل حياته في المسرح والسينما والتلفزيون وفي مجالات الاخراج المسرحي والاقتباس والتأليف والتمثيل خصوصا أنّ الرجل انتسب الى فرقة بلدية تونس للتمثيل وعايش المبدع المتميّز علي بن عياد.

نرجو أن تستمر هذه السلسلة في الصدور لتتناول تجارب مبدعين آخرين في ميدان المسرح وأن تكون الأحرف أكبر حجما لتسهيل القراءة مع تدعيم جانب الصور والوثائق.

باختصار الكتاب ممتع وشيق ولابدّ من تعب كبير للحصول عليه.

سيرة الألواح المنسية

صدرت مؤخرا لسلوى الرابحي مجموعة شعرية في 93 صفحة من الحجم المتوسط قدّم لها الشاعر الأستاذ فتحي النصري الذي اعتبر هذه المجموعة مغامرة في الكتابة تنمّ عن تجربة أصيلة ومعاناة حقيقية ووعي بشروط الخلق الشعري.

«سيرة الألواح المنسية» قسمتها صاحبتها الى أجزاء ثلاثة اطلقت عليها العناوين التالية:

- الجزء الأول (النور رقّاص الموتي) - الجرء الثاني: (فاض البحر قال) - الجزء الثالث: (ما وراء

السحاب). تقول الشاعرة سلوى الرابحي في إحدى قصائدها :

متعبة منك ومنّي / متعبة من هذي الأكوان / أيا شعر أغثني من نفسي / من روح يلطمها العشق / ولا تسمع صوت الطوفان.

كنت عمياء يا قرة العين / يا قمرا يستضيء بعينيّ / يتركني أحسب الليل قد عاد.. / من زمن الأولين / ويفجؤني بالسكات... / حبيبي، أرغب في أن أتماوج فيك / فكم زحفت خطواتي نحو سرابك...

باختصار «سيرة الألواح المنسية» مجموعة شعرية تمتع قارئها بلغتها وعالمها الشعري وايقاعاتها المتميزة. وهي ثاني مجموعة لسلوى الرابحي بعد «أحنّط ظلّي بطين الكلام».

وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

المركز الوطني للإتصال الثقافي

الشّهر الثقافي

يمكن الإطلاع على نشرية الشهر الثقافي في شكلة الجديد

من خلال الموقع التالي :

www.culture.tn

ويمكن الحصول مجانا على الشهر الثقافي من خلال :

Coupon d'abonnement قصاصة إشتراك

Pour recevoir **gratuitement** cette publication — للحصول على هذه النشرية مجانا :

Nom et Prénom : .... الإسم واللقب :

Centre d'intêret : .... محور الاهتمام :

Adresse : .... العنوان :

Code Postal : .... الترقيم البريدي :

Envoyer ce coupon : بعث هذه القصاصة إلى :

Centre National de Communication Culturelle المركز الوطني للإتصال الثقافي

31, Rue Sidi Ben Arous - 1006 Tunis — 31 ، نهج سيدي بن عروس 1006 ـ تونس

E-mail : cncc@email.ati.tn : البريد الإلكتروني

منشورات اتحاد الكتاب التونسيين

عنـــوان الكتـــاب	المؤلــــــــف	تاريخ النشر	السعـــر
البشير خريف في عيون النقاد	مجموعة من الكتاب	2003	6 د.ت
التضامن والتكافل في الثقافة التونسية	مجموعة من الكتاب	2003	7 د.ت
في الشعر التونسي الحديث (1)	تقديم أحمد الودرني	2003	7 د.ت
في الشعر التونسي الحديث (2)	مجموعة من الكتاب	2005	10 د.ت
مختارات تونسية في النقد والفكر	عثمان بن طالب	2004	20 د.ت
انطولوجيا المسرح التونسي	سمير العيادي	2005	15 د.ت
انطولوجيا المسرح التونسي (بالفرنسية)	سمير العيادي	2005	15 د.ت
انطولوجيا الشعر التونسي ج 1 (بالفرنسية)	عثمان بن طالب	2003	8 د.ت
انطولوجيا الشعر التونسي ج 2 (بالفرنسية)	محمد القاضي	2003	6 د.ت
انطولوجيا القصة التونسية (بالفرنسية)	فرج لحوار/حافظ الجديدي	2003	9 د.ت
انطولوجيا الرواية التونسية (بالفرنسية)	فرج لحوار/حافظ الجديدي	2004	15 د.ت
انطولوجيا النقد الأدبي (بالفرنسية)	عثمان بن طالب	2004	20 د.ت
دليل الكتّـاب التونسيين	صلاح الدين الحمادي	2005	12 د.ت

الجمهورية التونسية
وزارة العدل وحقوق الانسان
المحكمة العقارية

بــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف A من عمادة الجوزة ولاية باجة
والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية عمدون ومحكمة ناحية باجة
وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية
والســــلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

الجمهورية التونسية
وزارة العدل وحقوق الانسان
المحكمة العقارية

بــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف B من عمادة واد المعدن ولاية باجة
والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية نفزة ومحكمة ناحية نفزة
وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية
والســــلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

الجمهورية التونسية
وزارة العدل وحقوق الانسان
المحكمة العقارية

بـــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف K1 - E1 - A1 من عمادة الفوني ولاية سيدي بوزيد والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية المزونة ومحكمة ناحية المكناسي
وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســــلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

الجمهورية التونسية
وزارة العدل وحقوق الانسان
المحكمة العقارية

بـــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف D-C من عمادة العيون ولاية سيدي بوزيد والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية السبالة ومحكمة ناحية جلمة
وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســــلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

الجمهورية التونسية
وزارة العدل وحقوق الانسان
المحكمة العقارية

بــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف D1 من عمادة الغريس الغربية ولاية سيدي بوزيد والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية المكناسي ومحكمة ناحية المكناسي
وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســـــلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

الجمهورية التونسية
وزارة العدل وحقوق الانسان
المحكمة العقارية

بــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف D-C من عمادة قرع بنور ولاية سيدي بوزيد والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية سيدي بوزيد الشرقية ومحكمة ناحية سيدي بوزيد
وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســـــلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

الجمهورية التونسية
وزارة العدل وحقوق الانسان
المحكمة العقارية

بـــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف M1 من عمادة الخبنة ولاية سيدي بوزيد والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية المزونة ومحكمة ناحية المكناسي

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســـلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

الجمهورية التونسية
وزارة العدل وحقوق الانسان
المحكمة العقارية

بـــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف E من عمادة شنني من ولاية تطاوين والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية تطاوين الجنوبية ومحكمة ناحية تطاوين

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام اذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســـلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

sur le problème de la réception du texte et de la critique universitaire, Noureddine Slimani (Université de la Sorbonne) fait une lecture croisée de *Rose des sables* et *Ainsi parle la tour CN*, Marie-Jo Descoeurs (Université d'Ottawa) dégage de sa lecture thématique de *Rose des sables*, l'importance du motif de l'identité liée à l'exil et Sergio Villani (Université York) essaye de situer Hédi Bouraoui par rapport à la tradition et à la modernité.
Dans la quatrième partie de l'ouvrage consacrée à la femme, Asma Azzouz (Toronto French School) considère le personnage féminin comme symbole de la construction et de la déconstruction de l'identité, tandis que Jolanda Parruca (Ambassade d'Albanie) voit dans la femme égyptienne et la pharaonne une tentative originale de renouveler le modèle mythique.
Giuseppina Igonetti (Université de Naples) ainsi que les deux poètes Cécile Cloutier (Canada) et Jean-Max Tixier (France) ont axé leur travail sur *La Femme d'entre les lignes*, la première pour mettre en lumière le rôle que joue l'Italie dans le roman et les deux autres pour spécifier la place de l'amour dans la créativité littéraire.
Le texte de Suzanne Crosta (Université McMaster) conclut l'ensemble des travaux, tentant à la fois d' en synthétiser les grandes lignes directrices et d'ouvrir de nouvelles perspectives, de poser un regard neuf sur une production appelée à susciter d'autres approches critiques.

Compte rendu fait par Afifa Marzouki, Professeur de littérature française et francophone à la Faculté des Lettres, des Arts et des Humanités de l'Université de Manouba, Tunis

[1] . Certains d'entre eux ont été à la mesure de l'enjeu et ont proposé des textes au *Supplément*, Dès sa parution. Qu'ils en soient remerciés.
[2] Amina Saïd, « Poésie entre deux rives » : texte d'une communication à l'Université de St Andrews, Ecosse, Septembre 2000, p. 1.
[3] *op., cit.*, p.98.
[4] Paris : Editions Arcantère, 1985, 127 p.
[5] Paris : Editions Arcantère ; Trois Rivières, Québec : Les Ecrits des Forges, 1988, 117 p.
[6] Chaillé-Sous-Les-Ormeaux : Le Dé bleu, 1993, 125 p.
[7] Paris : Editions de la Différence, 2002, coll. « *Clepsydre* », 125 p.
[8] Amina Saïd, « Poésie entre deux rives », *op.cit.*, p.4.
[9] Vitry, Inéditions Barbare, 1980.
[10] « depuis que tu es né tu te tais. et s'il faut que tu parles ce ne sera pas de toi. de toi surtout de toi seulement. est-ce le plus difficile ?
pas un mot. ils te tendent la poigne autoritaire de la survie. si tu te tais. les autres. tu les croises sans un mot. tu les vois. tu vis à côté. rien. le silence est partout sur la ville saturée. l'homme muet.», *Paysages, nuit friable*, *op., cit.*, p.85.
[11] Amina Saïd, *op., cit.*, p.5 (en gras dans le texte).
[12] *op., cit.*, p.4.
[13] *ibid.*, p.119.

Compte rendu du volume des Actes du Colloque International « Transculturel-Transpoétique : l'œuvre d'Hédi Bouraoui », tenu à l'Université York (Toronto) les 26,27 et 28 mai 2005 à l'initiative du Centre Canada-Maghreb et publié en mai 2007 par l'Université Laurentienne dans la série monographique en sciences humaines 11.

Cet ouvrage intitulé *Perspectives critiques: L'œuvre d'Hédi Bouraoui,* a été réalisé sous la direction des Professeurs Elizabeth Sabiston et Suzanne Crosta, spécialistes de littérature francophone et respectivement directrice du Centre Canada-Maghreb et doyenne de la Faculté des Sciences Humaines de l'Université MacMaster (Hamilton). Nous leur devons aussi la préface du livre qui nous présente de précieuses informations sur le déroulement et le contenu du colloque. Outre les vingt-cinq textes d'étude de l'œuvre de Hédi Bouraoui qui s'étend sur une quarantaine d'années, cette publication qui compte 415 pages nous propose une vaste bibliographie critique ainsi que des notices biobibliographiques relatives aux auteurs des communications. L'illustration de la couverture de l'ouvrage a été réalisée par Stoïmen Stoïlov.

Les études sont regroupées en quatre parties : Le Transculturel en question, La Poétique de l'avenir, Approches diverses et Poétique du féminin. En guise d'introduction, Elizabeth Sabiston (UniversitéYork, Toronto) présente une réflexion générale sur le transculturel et la « résistance négociée du lecteur » où elle illustre le souci constant de l'écrivain de « construire des ponts » à l'intérieur de la mosaïque sociale canadienne qui offre en permanence un fructueux dialogue de la diversité. Ce travail donne, par ailleurs, un aperçu enrichissant sur l'ensemble de l'œuvre de fiction ainsi que sur les essais critiques de Hédi Bouraoui de 1960 à nos jours. Denise Brahimi (Université de la Sorbonne) quant à elle, nous propose, dans « La Traversée des pays et des mots », une réflexion sur un corpus plus restreint, embrassant plus particulièrement les dix dernières années de production de l'écrivain et qui interroge le nomadisme à la fois comme motif de l'œuvre et comme fondement de sa forme-sens.

Maïr Verthuy et Françoise Naudillon (Concordia, Canada), Maximilien Laroche (Université Laval), Sada Niang (Université de Victoria), Nicola D'Ambrosio et Angela Buono (Université de Bari) et Richard Ayoun (Institut national des langues orientales,Paris) étudient sous divers angles le transculturalisme et ses différentes manifestations culturelles, historiques et linguistiques dans les écrits de Hédi Bouraoui.

Si Jacqueline Beaugé-Rosier, poétesse canadienne, Georges Friedencraft et Eric Jacobée-Sivry poètes et éditeurs français, ont analysé la transculture et la transpoétique comme mode d'écriture spécifique à l'univers de Bouraoui, Michael Bishop, de l'Université de Dalhousie (Canada) tente de situer la poésie de l'écrivain par rapport à l'ensemble de la poésie française et francophone. En partant de plusieurs commentaires de textes précis, Christine Chemali (Centre de recherche sur la poésie contemporaine de Pau) développe l'idée de la diversité de l'ancrage mythique de la poésie de Hédi Bouraoui et Marco Galiero, qui a traduit *Rose des sables* vers l'italien, propose une lecture personnelle de ce conte.

Dans les approches diverses, Christiane Ndiaye (Université de Montréal) se penche

Compte rendu

élégies qu'il prononça pour pleurer son fils, Abdelghani, font autant de ce dernier un frère pour moi que du poète un père idéal capable de dire amoureusement sa douleur et de traduire douloureusement son amour. Que la cécité dont il souffrait, me permet de lire ses poèmes avec les yeux du cœur.

Indépendances

L'indépendance de notre pays est, dis-je, un acquis. Un acquis que chacun peut vérifier d'une manière ou d'une autre. Un acquis dont chacun peut mesurer l'ampleur et l'étendue d'une manière ou d'une autre. Chacun selon sa pensée propre, ses appartenances, ses adhésions et rejets. Des hommes illustres ont été à l'origine de cette indépendance. Des dates mémorables nous permettent aujourd'hui de commémorer leur œuvre. Œuvre considérable, en somme.

Mais il nous faut aller de l'avant. Aller à la rencontre de nous-mêmes, au-delà de cette indépendance historique, en vue d'une autre forme d'indépendance à la lumière de laquelle nous pourrons savoir d'où nous venons pour savoir où nous allons. Oui, nous autres Tunisiens sommes pluriels : arabo-musulmans, nord-africains et Maghrébins aux yeux des uns ; laïcs, Occidentaux et timorés aux yeux des autres.

Nul paradoxe dans ce que je viens d'exposer : en tant que Méditerranéens, habitants de *la terre du milieu*, nous sommes à la croisée des chemins. Et cette donnée peut aussi bien nous nuire que nous favoriser, selon la compréhension et l'usage que nous en faisons.

Oui, nous autres Tunisiens sommes pluriels et il nous faut cultiver cette qualité en nous considérant nous-mêmes avec les yeux des autres peuples. Seule l'Indépendance intérieure nous amènera à nous libérer de l'image unique et, partant, inique que nous avons de nous-mêmes.

لقدْ صارَ قلبي قابلاً كلَّ صورة
فمَرْعًى لغزْلانٍ وديرٌ لرُهْبانِ
وبَيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ
والواحُ توراة ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحبِّ أنّى توجّهتْ
ركائبُهُ فالحُبُّ ديني وإيماني

محيي الدين بن عربي

« Mon cœur est devenu capable
D'accueillir toute forme.
Il est pâturage pour gazelles
Et abbaye pour moines !

Il est un temple pour idoles
Et la Ka'ba pour qui en fait le tour,
Il est les Tables de la Thora
Et aussi les feuillets du Coran !

La religion que je professe
Est celle de l'Amour.
Partout où ses montures se tournent
L'amour est ma religion et ma foi ! »

Ibn 'Arabi

Aymen Hacen est né à Hammam-Sousse en Tunisie en 1981. Ancien élève de l'École normale supérieure de Tunis, agrégé de lettres modernes, il est aujourd'hui allocataire-moniteur de l'École Normale Supérieure Lettres et Sciences humaines de Lyon où il prépare un doctorat sur Cioran. Poète et essayiste, il a publié dans Le Nouveau Recueil et Europe. Il est, entre autres, l'auteur de Stellaire. Découverte de l'homme gauche, paru en 2006 aux éditions Fata Morgana, ainsi que d'Alphabet de l'heure bleue (Jean-Pierre Huguet éditeur, 2007) et Erhebung, vingt et un textes pour vingt et une photographies de Yan Tomaszewski (à paraître en septembre 2007 chez Jean-Pierre Huguet éditeur).

L'INDÉPENDANCE INTÉRIEURE

Aymen Hacen

D'un mâle exil

Il sera ici question d'indépendance et d'exil, précisément de cette part de féminité inhérente à l'indépendance qui s'oppose, à mes yeux, à la rugosité virile de l'exil, car vivre loin d'elles — ma mère, ma bien-aimée et ma patrie — est, pour moi, un dur exil.

Toujours est-il que c'est la pression qu'a exercé sur moi le mâle exil qui m'a décillé les yeux sur mon profond attachement à notre pays et à ce que notre pays a acquis depuis l'indépendance. Attachement, me semble-t-il, d'autant plus profond que je suis né exactement vingt-cinq ans après l'indépendance de notre pays et que j'ai eu vingt-cinq ans lorsque notre pays en a eu cinquante. Aussi ce constat s'impose-t-il : mon pays et moi sommes tous deux des jeunes, et lui plus que moi — lui a trois mille ans d'histoire et il est jeune tant qu'il porte dans son giron des jeunes. Des jeunes qui n'en finiront pas de naître. Des jeunes qui seront la Fontaine de Jouvence de notre pays.

Aujourd'hui, je suis ravi d'avoir retrouvé ce vers d'al-Hosri al-Kairawani. Vers appris parmi tant d'autres il y a plusieurs années au cours de ma scolarité en Tunisie. La perte de ce vers pendant plusieurs jours me plongea dans de profondes ténèbres. J'eus beau fouiller dans ma mémoire, appeler amis et famille, chercher et rechercher. En vain. Et c'est à Lyon, non loin de moi, qu'un ami professeur d'arabe et, qui plus est, franco-tunisien, m'aida à le retrouver dans le manuel scolaire où je l'appris moi-même :

مَوتُ الكِرامِ حَيَاةٌ فِي مَوَاطِنِهِم
فَإن هُمُ اغتَرَبُوا مَاتُوا و مَا مَاتُوا

علي الحصري القيرواني

« La mort des hommes preux est vie dans leur patrie
En s'exilant, ils meurent sans mourir. »

Al-Hosri al-Kairawani

Inutile de dire que la voix d'al-Hosri m'émeut. Que ses infinis périples entre Kairouan et l'Andalousie, jusqu'à sa mort à Tanger, me le rendent familier. Que les

fin qu'à une tardive de l'après midi ou en début de soirée, c'est-à-dire juste avant le commencement de la cérémonie. La séance de beauté qui dure toute la journée peut même commencer ans certains cas quelques jours avant le mariage. Car de nos jours, les jeunes femmes aisées ne se contentent plus de se faire une coupe agréable, de se teindre les cheveux, de se maquiller le visage, de mettre le manucure et le pédicure et de se faire porter la robe de mariage. On parle maintenant de massage, de lifting, de contracter les nerfs e les muscles, le tout afin de présenter à la cérémonie une mariée fraîche, détendue et sublime à merveille. Naturellement, ce sont les moyens financiers de la famille des mariés qui déterminent le choix du salon de coiffure, ou de l'institut de beauté, sans oublier l'étiquette.

L'un des célèbres salons de coiffure de Sfax se trouve en plein centre ville moderne, face à un café très fréquenté. Tous les après midi, un grand nombre de jeunes hommes et d'adultes viennent y prendre place, dans le but de voir défiler devant leurs yeux des dizaines de grosses cylindrées agréablement décorées pour la circonstance . Ces voitures s'arrêtent sans discontinuité, l'une après l'autre devant la porte du salon de coiffure. Quelques minutes ou quelques secondes plus tard, la porte du salon s'ouvre et on voit apparaître une véritable poupée humaine se dirigeant vers la voiture venue la chercher. Elle s'y installe avec solennité et la voiture démarre en klaxonnant. Une autre voiture prend sa place et ainsi de suite.

Un ressortissant d'un pays frère voisin a depuis quelques années pris l'habitude de venir passer ses vacances dans la capitale du sud. Par simple hasard ou pure coïncidence, il commence à fréquenter ce café pendant ses moments libres. Cet homme ne met pas longtemps pour remarquer la file de voitures qui viennent comme dans un ordre préétabli, s'arrêter devant le salon de coiffure pour emporter l'un après l'autre une jeune mariée dégageant une agréable odeur qui vient de loin lui chatouiller les narines. Il se met alors à méditer ; une idée lui vient à l'esprit ; pourquoi pas moi aussi ?

Le lendemain après midi, après avoir décoré sa voiture comme il se doit, il va se pointer devant le salon de coiffure et se met à attendre son tour. Bien sûr aucune mariée ne se dirige vers sa voiture malgré ses nombreux klaxons. Quelques instants après, une autre voiture vient s'arrêter derrière la sienne. Le conducteur donne un coup de klaxon ; la porte du salon s'ouvre et une jeune mariée se dirige vers la voiture.

Notre riche commerçant puisque c'en est un, s'étonne et se met en colère. « Il faut réagir » se dit-il « je ne dois pas me laisser faire, sinon l'opération va se répéter et je risque de ne rien gagner » L'air courroucé, il descend de sa voiture. Il l'étreint par la gorge, le secoue sévèrement et lui crie au visage : c'est mon tour nom de Dieu ; je suis arrivé avant vous ; plusieurs gens sont des témoins ; ne me prenez pas pour un dupe »

de clartés.

Mais il y a d'autres jardins moins orientaux où se jouent des fêtes galantes. Dans *Le contrat de mariage*, le tableau de ce misogyne, déçu avant d'avoir connu l'amour, qu'était Watteau, dépeint une scène galante où l'on s'amuse sans vraiment rire, quelques visages se déforment et même se dédoublent Ainsi la tête d'une femme qui vient d'embrasser son amant se dédouble et le deuxième visage exprime en se détournant, son véritable dégoût du baiser qu'elle vient d'offrir. *Songe du mensonge et de l'inconstance,* ce titre révélateur du labyrinthe de l'amour est du peintre espagnol Goya ! Un croquis à l'acide noir des eaux fortes !

Jetant enfin un dernier regard sur l'inextricable dédale de la Médina, je décidai de peindre un tableau du nom du : *fil d'Ariane*. Celui-ci devait résumer mon destin. Dans les dédales de ma pensée, ce n'est pas tellement la figure de Thésée qui devient l'instigateur de ma propre aventure sinon cette jeune vierge, figure emblématique du don de soi. Pourquoi donne-t-elle à Thésée le fil? On connaît la raison. Elle est amoureuse de celui qu'elle destine… Ou plutôt de celui qu'elle voudrait voir comme un héros triomphant de la bête, du mal et de l'immonde Minotaure. C'est ainsi qu'elle offre son savoir à celui qu'elle aime. Don de soi ou don de l'amour? Elle ne mesure pas la portée d'un tel geste. On ne connaît pas grande chose sur l'origine du mythe. Il s'agit vraisemblablement d'un sacrifice. Ariane devait être sacrifiée par son père au Minotaure. Sinon pourquoi, pour quelle raison se trouverait-elle projetée au cœur du labyrinthe? J'imagine Minos désirant sacrifier la plus belle de ses filles. Il s'agirait vraisemblablement d'un sacrifice expiatoire.

Minos veut se venger de sa femme Parsiphaé, en sacrifiant ce qu'il a de plus cher. Et qu'a-t-il de plus cher sinon sa fille? Ariane, je le rappelle, est fille de Parsiphaé et cette dernière a rendu cocu son tout puissant époux, Minos, roi de Crète avec Poséidon, roi de la mer. Au fait les choses se sont passées plus simplement, Ariane a demandé à Dédale, l'architecte du labyrinthe le fil conducteur. Il en est toujours ainsi avec le mythe qui propose souvent une histoire simple mais l'allégorique est si puissant que ça part forcément dans tous les sens. Au fait l'histoire d'Ariane est un peu mon histoire à rebours.

Naïveté

Par Abdelkader Maaleg

En été, tous les étés, Sfax, à l'instar de toutes les autres villes turisiennes, se transforme en un véritable grand gala. Les cérémonies de fiançailles et de mariages se succèdent jour et nuit, sans relâche, sans arrêt, durant trois ou quatre mois. Les préparatifs nécessaires à ces fêtes battent leur plein, qui à qui mieux mieux, pendant plusieurs jours, voire plusieurs semaines avant le jour de la fête. Entre autres préparatifs une formalité de taille s'impose, et toutes les jeunes mariées doivent s'y soumettre. Le jour du mariage, dés le matin, la jeune mariée doit se rendre à son coiffeur ou coiffeuse préféré pour la séance de beauté nuptiale qui ne prend

désamour, en trahison, était forte? Ils me reviennent ces vers de Racine : «Ariane, ma sœur de quel amour blésée vous mourûtes au bord où fûtes laissée ?» Le tableau sera d'abord en rouge et noir en turbulences névrotiques en sang du sacrifice d'un dieu sauvagement antique. Enfin il deviendra azur et blanc en espérance et ouverture poétique. Mais pour que le rêve ou l'onirisme de l'image puisse s'accomplir en mouvement et légèreté aérienne, il fallait une envolée d'ailes sur une gentille corbeille de citrons jaunes pour donner au spectacle une couleur de parfum, de senteur fraîche et de fête où triomphe enfin la transmutation de la psyché.

C'est ce que le peintre conseilla au poète. Et il ajouta encore qu'il était inutile de nommer le genre ou l'espèce de ces oiseaux migrateurs qui traversaient la toile et le cadre car ils étaient dans le secret d'Ariane et qu'elle seule pouvait à présent dire ou nommer. Elle seule savait le lieu en fil conducteur de l'immatérielle visualisation de l'âme lorsqu'elle aperçut, un jour, une plume tomber d'un ciel lointain… Des ailes d'Icare, peut-être, mais pour autant, cette appartenance ne signifiait rien.

D'un battement d'aile,la plume avait échappé à son maître. Le peintre rappela au poète le tableau de Breughel, où l'on aperçoit Icare tombant dans la mer profonde, dans l'indifférence largement consumée du monde. Et au premier plan du tableau un laboureur, absorbé par la tâche, le dos tourné sur la scène du drame et, juché sur quelque hauteur, penché sur son araire, il suit du regard les sillons tracés par celui-ci.

Les ailes du rêve sont, dit-on, l'apanage de l'onirisme féminin. Mais pourquoi tant de sublimation après un sentiment douloureux de castration ? Pour comprendre cette chose étrange, il nous faut revenir à Ariane.

La voici immobile, effrayée autant que surprise, éprise d'une étrange inquiétude.

Pupille contre pupille, elle voit le volatile et le choc devient immense traversée du miroir, en étrange conjugaison d'une même transparence de l'être et de l'univers, de l'être et de son néant, non plutôt de l'être et de son annihilation.

Qui est le maître et qui est l'ombre ? Il n'y a plus de Maître ni d'ombre. Il y a qu'Ariane est devenue le miroir de Dieu, où se réfléchit l'essence même de la lumière. Elle est à présent au cœur du labyrinthe, prisonnière comme piégée par l'immensité de son amour. Plus de Dédale, plus de Minotaure, elle n'est plus que pure essence en fleur d'étoile. Plus seule que jamais, elle attend. L'attente parait infinie…A présent le volatile en céleste beauté crépusculaire s'évanouit en rouge, or et noir. Et comme pour la huppe de Salomon, il annonce la venue d'un Trône.

Le Parfait Dionysos consent à descendre, au crépuscule des dieux, lui faire l'amour en recouvrant cette jeune beauté esseulée qu'est Ariane de son rouge manteau d'archange du ciel. Je suppose que l'endroit où la scène a lieu s'appelle « l'enclos du seigneur ». En iranien, en pahlavi, le mot paridaiza désigne l'« enclos du Seigneur.» Il aurait donné en français et en d'autres langues le mot Paradis.

Pour mon exposition de peinture j'ai peint bon nombre de ces jardins intérieurs au centre desquels : le cyprès s'élançant vers le ciel comme aspiration des plus pures pensées ; seul sur un désert de tombes il peut faire surgir le mirage du Paradis en image renversée. L'arbre ne plie point et son dru feuillage où s'accroche le doux jasmin accueille, le soir qui décline, les vols fatigués et piaillants d'oiseaux épuisés

les oliviers, les palmiers, les vignes/ et toutes sortes de fruits. / Il y a vraiment là un signe/ pour un peuple qui Réfléchit ! Il à mis à votre service/ la nuit, le jour, le soleil et la lune. Les étoiles sont soumises à son ordre. / Il y a là des Signes pour un peuple qui comprend !/ Ce qu'il a crée pour vous sur la terre / est de couleurs variées. / Il y a là un Signe/ pour un peuple qui réfléchit.»(Sourate les Abeilles v.10,11,12,13).

Dieu, me rappelle Riadh, est Parfaite Beauté, Al-Kamel et aime le Beau, Al-Jamil. Je reste un instant comme suspendue à mon rêve… Au Jardin des fidèles d'amour et sur le chemin ombragé qui mène à la fontaine, j'entrevois les ombres légères de Moise et de sa jeune épouse. Leur image conjointe se profile sur les méandres de ma mémoire. Je me trompe, c'est plutôt Béatrice qui passe au-dessus du pont aux eaux tumultueuses du fleuve, indifférente au regard du jeune Dante Alighieri. Et, de l'exil de cet amour de jeunesse, naîtra : La Vita Nova.

L'amour comme un songe qui passe : Songe d'une nuit d'été ! Songe d'eau qui coule sous le pont emportant au loin l'instant décisif où les choses en viennent à éclore ou au contraire le moment tout aussi décisif où elles se dissolvent. Mais peut-être que quelque chose se passe à un tout autre niveau plus céleste que terrestre. Rêve puissant d'un dieu jaloux de la grâce d'une jeune femme en envolée blanche de colombes sur une corbeille de citrons jaunes. Ariane au fil magique et que Thésée trahit pour l'amour de la sœur, une dénommée Phèdre ! Avait-elle de si beaux yeux ? Car là aussi, elles étaient deux sœurs comme pour Moise quand il rencontra auprès du puits de Médian les deux jeunes femmes épiées par des malfrats dont j'ignore le nombre et l'une d'elle deviendra sa femme.

Mais pourquoi l'une et pas l'autre ? Peut-être parce que le regard de Moise croise le regard de l'une d'elle et non point le regard des deux. Est-ce le hasard ou la destinée ? Elles étaient, ce jour là, deux sœurs inséparables à vouloir abreuver leurs bêtes au puits qui étanche la soif. Le Livre dit : « Moïse abreuva leurs bêtes, puis se retira à l'ombre. Il dit : « Mon Seigneur ! J'ai grand besoin du bien que tu feras descendre sur moi ! » C'est alors que l'une des femmes vint à lui, en s'approchant timidement, poursuit le Récit. Dante ne rencontre point le regard de Béatrice, pas plus qu'Ariane ne rencontre celui de Thésée.

L'amour naît de cette étrange mathématique en jointure de deux axes. Un dieu magicien observe ce point axial convergeant en point initial! Deux noires pupilles forment par la magie du regard un écran où se projettent en gouffre immense l'univers et le néant mystérieux de sa nuit. La pupille de l'un est la pupille de l'autre, parfait miroir en éclipse totale. Le regard pourtant éloquent d'Ariane n'est pas pour autant perdu. Un Dieu s'en saisit ; il renvoie en messager un pigeon à la noire pupille, véritable image en puits sans fond du mutique mystère de la Création. L'Oeil du dieu immobile et étrangement fixe, attend. Ariane perçoit, en bruissement impromptu d'ailes, l'ombre de l'oiseau sur le balcon.

Un instant elle pense que le poète pourrait s'il le désire tracer dans le ciel bleu l'image allégorique de mots immenses à la couleur de ses états d'âme. Ciel de terre et Terre de ciel, le pigeon voyageur devient colombe en pureté blanche, et le bleu et le blanc se conjuguent en ultime recours et espérance. L'instant d'avant ne désirait-elle point mettre fin à ses jours, tant la douleur du

ne se mesure point à une explication.

Il nous faut toujours revenir à la source pour comprendre. Je raconte à Riadh l'histoire d'une sainte du monde chrétien, je crois me souvenir de son nom : Noyale, mais n'en suis pas sûre. On lui coupa la tête et pendant un bout de temps elle marcha avec celle-ci entre les mains. Des trois seules gouttes de sang qui tombèrent sur le sol, jaillirent des profondeurs de la terre, trois sources.

En arabe *sabil Allah* se dit pour la fontaine et pour le chemin du savoir. Le Livre est livre de lumière mais également Livre d'eau. La rue où je suis, dans les souks de la médina, est ponctuée de petits oratoires et de médersas pour anciens étudiants en théologie, espaces privilégiés pour la prière et la méditation. Riadh me parle du portique de Bir-l-hajar, le puits du tailleur de pierres ; sur la façade de l'édifice un linteau dénommé fontaine du savoir et voici ce que l'on peut y lire : « Le Pacha a construit cette maison du Savoir. Pour la gloire de Dieu, en guise d'œuvre pieuse. Il plaça à l'intérieur une fontaine dont l'eau serait plus douce que la bouche de la bien-aimée.» Le linteau parle encore des houris qui, au Paradis, étanchent la soif.

J'imagine un instant le tailleur de pierre, sa sueur à la tâche et sa soif réelle. L'eau qui étanche la soif est un tout, inséparable de la science, du savoir, de la connaissance mais, il serait aussi puits d'amour d'où la présence du puits lui-même. Les hommes ont oublié cette chose essentielle !

Je demande à Riadh de m'apporter à présent un café turc et une petite bouteille d'eau, l'un est inséparable de l'autre.

Un instant j'essaye de me remémorer… c'est au puits de Médian que Moise rencontre deux femmes, elles sont sœurs. Elles se sentent menacées par des malfrats qui les observent les empêchant de puiser l'eau pour étancher la soif de leurs bêtes. Le nabi leur vient en aide. Puis il se retire un peu à l'écart pour se confier à son Dieu d'amour. « Tu sais bien ce que j'ai dans le cœur, dit, à voix tue, Moise.» Il exprime sans doute par là sa solitude, son éternelle errance et puis il vient de rencontrer ces deux femmes…

Romance sans paroles, par la pensée sans l'intonation de la voix ! Tout se passe à l'intérieur du jardin secret de son cœur où coule un fleuve de vin hydromel qui n'enivre point l'esprit mais vivifie l'âme en source vive renouvelée. Sans doute est-il attiré par l'une d'elle mais préfère garder silence et se confier à son Dieu. Sublime attente et sereine confidence d'un secret !

Un peu plus tard, il se mariera à l'une d'elle, mettant ainsi fin à la longue errance d'une première quête. L'homme a trop longtemps marché, seul, sans compagne dans le labyrinthe de sables et de dunes du Sinaï. Il n'a point encore rencontré la Montagne. Et le sable brûlant racle la plante de ses pieds, la pierre écorche ses orteils. L'eau du Bien Aimé rafraîchira la bouche du nabi, étanchera la soif des bêtes et rendra possible la longue marche vers les cimes. Et sa demande est si tendre et délicieusement voilée qu'elle apparaît en métaphore filée comme le dos du bourdon qui se charge de la poussière d'étoile, en pollen de lumière, pour transmettre le message d'amour de fleur en fleur.

L'abeille butine à présent sur la bouche de la bien-aimée en nectar de miel et inspire les versets du Livre. « C'est lui qui fait descendre du Ciel/ l'eau qui vous sert de boisson /et qui fait croître les plantes/ dont vous nourrissez vos troupeaux. Grâce à elle, il fait pousser pour vous/ les céréales,

étrangement autonomes, comme détachées de la pesanteur matérielle des choses et des êtres. N'ai-je pas plusieurs fois rêvé que mon âme, habillée d'une longue tunique de nacre et de lune planait au-dessus d'un champ d'orties et de chardons ? Epines et ronces... Ce n'est pas nouveau... Ces éléments apparaissent souvent dans le monde sublunaire de mes rêves... Moi, je vogue dans la nuit, au-dessus du champ épineux sous le regard de la pleine lune.

Il m'arrive parfois de penser que ces formes que j'aperçois en mi-songe, mi-éveil existent par elles-mêmes, elles ne dépendent en rien d'un substrat matériel. Je les regarde avec étonnement, ce sont les filles de mon âme. Je me surprends à les regarder vivre ; elles sont libres... Il y a sans doute quelque chose d'aérien dans tout ceci. Oui, il y a sans doute quelque chose d'éternel et de transitoire à ces êtres-formes qui semblent naître de nulle part et qui, à mon insu, dessinent les contours de mon âme en quête des mondes à venir.

Sur la grève du Monde, la Beauté est comme une de ces coquilles où l'on entend le bruit d'une mer invisible, elle est la conque du pays du Non-où. Ces paroles énigmatiques sont celles du mystique iranien Sohrawardi, mort martyr à l'âge de trente six ans... Il y a longtemps de cela. C'était à l'époque de Saladin, celui des croisés, vers la dernière décade du douzième siècle... Mort à Alep dans une forteresse syrienne.

Ne suis-je pas seule au milieu de nulle part ? Un peu comme au pays du Non-où...

Je continue d'effacer le brouillard matinal sur les miroirs embués avec cette sensation tenue que la Beauté va enfin surgir comme Aphrodite au milieu de la mer invisible, tout en sachant qu'il n'en sera rien. Le mystique l'a bien dit. Il s'agit d'une conque vide au pays du Non-où, laissant entendre le bruit lointain des vagues d'une mer inconnue.

J'en étais aux paroles perdues ... Je regarde la fumée de mon narguilé s'épandre en volutes. Je bois une gorgée de mon thé à la menthe. Je me dis que je devrais écrire sur ces choses. Et puis je n'ai pas à faire dans le roman... Il y a pléthore de ce genre d'ouvrages au marché des libraires... Je suis peintre et aime les récits à la parole de silence, remplis de symboles d'où émergent les images vraies qui n'ont pas besoin de se matérialiser en aventures ambiguës pour devenir.

Sur la grève du monde, je revois Shorawardi. Il est à présent seul. Pas tout à fait. Il semble être en compagnie de ses archanges zoroastriens, son âme se plaît en jouissance créative de formes, tant attendues et désirées. Le voici quittant les ténèbres de ce monde et s'en va vers la Pure Lumière, cherchant à tire d'ailes la Face de l'Autre.

De l'obscurité des dédales surgit un tableau en bleu turquoise et blanche candeur... Les trois coupoles de Sidi Bou Saïd El Béji... Un, deux, trois... Trois colombes s'enfoncent dans l'éternité azurée... Une mer émeraude. Une montagne bi cornue, un ancien volcan éteint que les premières lueurs de l'aurore teintent d'or... Ouverture matinale afin que des vieilles fenêtres aux vieux fers torsadés surgissent les Paroles retrouvées en apparitions et lettres tant attendues... Eclats en suspension ! « Les sons et les couleurs se répondent. » Elles correspondent en unités fondamentales. Le maître aurait entendu la musique des étoiles à l'instant du ravissement...

Fascination serait le mot clé du mystère de l'Amour, fil d'Ariane qui nous lie au firmament. Et cette chose extraordinaire

Ariane et moi-même

Aïcha Ibrahim

Le Livre dit : «Quand tu vois des gens plongés dans la discussion au sujet de nos Signes, écarte-toi d'eux… Sa parole est vérité… Le jour où soufflera la trompette…»

Je vous rappelle que j'ai déjà longuement parlé des trompettes de l'Apocalypse.

Nos peurs, nos inquiétudes, sont vieilles comme le monde! Il est vrai que la grippe espagnole avait fait dans le temps des millions de victimes. Il est vrai, aussi, qu'on nous a annoncé le chiffre apocalyptique de cent vingt millions de morts pour la grippe aviaire. Fichtre !

Le Livre m'apprend qu'Abraham fut soumis à la même expérience que «l'éveillé ». « Abraham dit à son père Azar : Prendras-tu les idoles pour des divinités ? Nous avons montré à Abraham la Voie... »

Et c'est dans son cheminement solitaire, par la voie de l'étoile, de la lune et du soleil, qu'Abraham apprend à reconnaître : la Vérité.

Quant à moi, je suis comme la coquille vide. Je tourne en colimaçon dans le labyrinthe d'une pensée qui cherche à s'évader du monde étriqué de l'autobiographie. Pour accomplir cette chose, l'autobiographie, il faut s'enfermer dans son petit monde. Et parler de soi revient égoïstement à devenir le prêtre de sa petite paroisse remplie de boules qui font office de voyantes astrales, capables de déchiffrer dans le magma des souvenirs, des petits drames et embellies de jadis.

Je suis assise au café dans les souks des Chaouachia, que je traduis par le Souk des bonnets. Je fume tranquillement mon narguilé et déguste mon thé à la menthe. J'appelle Riadh, le serveur que je connais depuis longue date pour lui demander où se trouve le cénotaphe de sidi Ben Arous, un saint parmi les saints. Il m'indique l'endroit. C'est à deux pas de là.

Je demande encore à Riadh : « Que peux-tu me dire de cet homme et à propos de sa sainteté, quoi ?» Il semble étonné, puis reprend de l'assurance et rétorque : «écoute, sache qu'il faut que tu distingues entre la vie de l'homme, la panoplie des dires qui tournent autour de celle-ci, ce que l'on a pu inventer au cours des siècles et le saint message qui n'est attribué qu'aux nabis et prophètes de Dieu.»

Ah !m'écriai-je, je détiens le nom que je compte donner à mon exposition de peinture : «Racines» et mon livre s'appellera : «Solitudes enracinées.» Une véritable scène de tauromachie se profile sur l'arène de la mémoire. Je voudrais écrire sur cette lutte intérieure où se joue le cheminement d'une quête. En attendant point n'est besoin de traduire comment l'on explique la parole déguisée et de montrer les couleurs de ce déguisement dans la nuit profonde de l'âme.

Je cherche les paroles perdues, comme un éveil à moi-même… Longue attente pour des images en suspens sur les miroirs embués de brumes et brouillards que ma main essuie doucement à l'orée du petit matin. Ce geste anodin est sans doute une image d'enfance… Le souvenir traverse à l'instant mon esprit… En remontée de la source des paroles vraies… Je m'éveille à celles-ci… Mon imagination divague et recrée le monde. Non, plutôt elle donne à voir un monde de sensations vivantes et



Aïcha Ibrahim, Le Fil d'Ariane, exposition « Racines 2006», Galerie Bel Art.

Il double chaque jour mamie.
Mamie, il l'a vue de loin, dans une rue. Il a eu le temps d'observer ce petit tas tout drapé beige chancelant. Il a réfléchi longuement s'il allait la doubler par la droite ou par la gauche ; il faudra changer d'idée au dernier moment parce que mamie titube de biais. De dos déjà, on devine qu'elle s'assèche sous ses mailles, que son buste et ses jambes sont rentrés progressivement dans son bassin avec des douleurs de vieille tectonique, qu'elle peut marcher encore parce qu'elle n'est plus qu'une petite cavité ridée, légère.
Il l'atteint à mi-rue et il ralentit, pour ne pas trop humilier mémé, qui a dû sentir une par une les brûlures des pavés pour en arriver là.
Et puis l'instant inévitable du dépassement : sans avoir vu son visage, il met à mort mémé. Derrière lui le sac se crève lentement, s'effondre. Un détritus en toile oublié quelques mètres avant le tournant. Et au bout du jour, les éboueurs.

On vous a imposé la porte Verte. L'alternative. Le couple des arches. Et pas un brin d'herbe pour le nom.

Tu tangues sous les portiques et tu paies ton entrée à un prix dérisoire et tu tangues entre les milliers de tombes très propres et tu repaies parce que tu es déjà venu, la grande ronde des morts de marbre, au milieu tout seul, toujours, le tourbet très beau et très froid, en tombant au ciel des orangers verts.

Toute terrasse y est fausse. Seulement des antennes et du linge frais. Surtout pas de vue d'ensemble. Peut-être, de loin, quelques pans typiques, mais qui ne disent rien. Ne jamais croire qu'on domine et qu'on saisit ; si vous discernez une ligne claire d'horizon, méfiance. Vous respirez certes, les bribes légères et blanches du vent, au-dessus. Mais dans le vrai et dans le fond, on oblique et on s'emmêle. Combien d'étranglements commis dans les alvéoles des moucharabiehs, et qu'on n'a pas élucidés depuis leur invention ? Parce que l'enquête avait pris de la hauteur sur l'affaire. Si vous essayez de courir à heures de pointe entre les étals, c'est vous qui aurez le mobile. Et la filature poétique de sueur. Et si, par chance, vous vous cognez, vous tenez le réel.

Au premier temps, je levais les bras. Vers lui, mes doigts perdus.

Au second temps, il me donna sans le savoir les paroles de paix. Son éternelle moustache y contribua sans doute beaucoup.
Je frottais mes yeux, je lissais le mal du jour sur mon front.

Au troisième temps, j'étais arrivé. J'établis pourtant l'égalité des pièces et du chiffre au compteur.
Pour le règlement.

Depuis je me dis : je regrette de n'avoir pas vérifié sa plaque d'immatriculation.

Grave question des lumières et des heures. Grave question des lignes, grave question des forces dans le cadre de l'appareil. J'ai pris des portes par centaines. En double. On ne sait jamais. Et encore deux fois plus de battants. Je suis devenu un fou argentique des séries. On m'a vu errer à trois heures du matin dans la médina, parce que je voulais la version noire d'une porte blanche. Le flash comme le grand viol hagard. J'y laissais chaque nuit mes deux petits poings noirs sur les bois bleus et jaunes du jour.

Bab Benat. Jamais vue

J'en ai marre d'avoir tout compris au dédale. L'habitude
ponctuée des petits cercles de glaires au sol.
Il se pourrait même que je reconnaisse certains visages, que je salue. L'ennui.

Mais une nuit, le froid. J'avais négligé la menace des êtres faméliques : surpris d'abord par les entraves sirupeuses des chats, je n'ai pas saisi le vieillard debout tout seul sur ma gauche, pas saisi son immobilité qui ne signifiait rien à cette heure. J'ai cru que ça pourrait m'échapper. L'effroi devant les choses passives, la sensation nette que quelque chose ne va pas. Des phares de voiture non justifiés, parce que c'est étroit. Décidément, une bien belle soirée de beaux doutes.
Jusqu'à ce que trop facile j'aperçoive des gibets à la place des pelotes d'herbes médicinales suspendues. Je commençais à en faire trop. Et le reste du chemin en train de saisir l'occasion, à réfléchir, à essayer de force de mal interpréter.
C'était foutu.

Après tout, au clair, heureusement !

Bâb Souika, la porte au nom indécidable, toi, tu suis ton itinéraire du quotidien, sans jamais la voir, tu t'engouffres entre les fruits et les légumes du long souk qui la quitte.

Je suis incapable de centrer calmement cette exemplaire figure de la misère, le vieil estropié qui vend des touffes de ciboulettes, si loin sous mes pieds, dans un étouffoir.
D'abord, et s'il me regardait ? Je lui dirais que je photographie le pittoresque terrible et sublime pour papier glacé ?
Ensuite, et si je m'arrête et si je vise, on me saura touriste, on comprendra mon approche vicieuse, on aura tout droit de me bousculer et de m'insulter ?
Et mes beaux clichés seront flous ?

La triste ville du dimanche de métal. À cause des séries de volets roulants hermétiques. Les enseignes fantômes, et à intervalle régulier des petites colonnes, entre les boutiques, vrillées de rouge et vert vifs. Les sucettes tristes et le silence de mes pas.

Si cette médina était vraiment grande, il y aurait l'excitante possibilité de se sentir absolument seul, le risque d'errer enfin dans le désert des voûtes et des angles : se perdre en soi gris, simuler l'étrange serrement au cœur de celui qui se croit le dernier homme, qui hante les vestiges avec des frissons et des échos à n'en plus finir, le sentiment dans l'abandon final que sa conscience solitaire suffit, et puis se rendre compte qu'il n'en est rien, et aggraver la situation en pensant aux êtres chers. Trop, trop petite, petite : pas le temps de porter jusqu'à l'abîme.

On maudit en vain le passant qui peuple. Je dois fermer le sublime jusqu'à dimanche prochain. Et, vite, on se destine de nouveau.

Odeurs ou les surprises, sur le chemin.

Copeaux et essences fraîchement poncées, puis pisse
Jasmin puis macadam puis vomi.
Pain chaud ventilé et confiture d'oignons
Abats puis persils puis poissons vitreux, juste après le petit-déjeuner.
Ordures variées, composées.
Métal chaud, rue des dinandiers.
Café dit direct ou thé âcre.

Ce soir,
il faut que vous imaginiez bien la scène, dans la fatigue,
mon chauffeur de taxi.

La nuit, ceux de la médina sont chauds, je ne les touche pas, en passant, mais à droite et à gauche, ils sont chauds. Le sol est aussi un mur chaud de bitume. Et, derrière les couches de chaux blanche, ça vit, les jaunes du foyer qui s'échappent d'une lucarne, les saccades de la télé. Mon cheminement est au rythme du soir, je dérive d'étroites zones d'ombre en espaces étroits à la lueur électrique. Les sons sont étouffés par l'ouate de la nuit. Je dors sur une botte d'herbes sèches, ou sur un des gros chats qui flottent dans les contours des portes. Mon teint pâle s'oublie. L'obscurité héberge l'étranger, elle me fait du monde des rares hommes que je croise. À cette heure le dédale de jour ne perd plus personne, j'ai l'impression de longer l'intimité qu'on entrebâille, je frôle les seuils, on est presque en famille. Là j'ai supposé que rien n'a jamais dormi. Ce ne sera qu'une lourde somnolence. Les dômes léthargiques ronronnent, se gonflent, se dégonflent sous une couverture noire sans étoiles.

Bâb Bhar, la porte de la mer, aujourd'hui, plus d'écume de quatre cents ans, elle est battue par les lames de touristes. Sans forcer la métaphore, l'impression irrépressible de nager entre des bancs de gros poissons ahuris. Sans un mot, je fends, je ne résiste pas au plaisir de jouer le grand requin blanc en pantalon.

La médina est une femme, aurait dit la chanson. Le passage où cet excellent anonyme se plaît à fredonner qu'on ne sait jamais par où y entrer, comme pour la femme. Je ne pense pas qu'il faille y voir une trop grossière allusion. Et puis toutes ces métaphores éculées qui voient dans les ruelles tortueuses les sinuosités des voiles féminins, qui font des dômes, et du croissant vert qui orne, les seins et leur téton vernissé. On parle aussi de sa peau blanche, des grands yeux maquillés des portes. Il s'amuse et ajoute, à peine suggestif, que les rondeurs de ces portes à deux battants peuvent faire penser au fessier charnu d'une femme penchée. Encore, les odeurs des étals d'épices, les voilà émanations sensuelles du jeune corps. Etc.

Et, évidemment, l'auditoire des hommes éclate d'un rire un peu fou, parce qu'ils comptent beaucoup de minarets dressés dans cette seule dame. J'ai tout de même transposé, car en arabe, c'était très crû.

Mais Dieu sans doute excuse le petit sacrilège tardif aux tables des cafés.

Je suis stupéfait par la violence sexuelle du regard des hommes : ne pas se dévoiler, ne pas créer de lignes de tissus et de formes, jouer à l'extrême la pudeur sécurisante, croire qu'on annule les pulsions sous des laines rêches, et attiser alors l'envie au plus rouge, d'un côté. De l'autre, la bouche réprimande les dévergondées en cheveux, et ce sont les yeux qui fouillent au corps, qui cherchent à saillir.

Un bon conseil : Galope, salope.

et les investisseurs. Bonjour — ... — dégage. Dix
dinars. Tu es français ? Pas à la menthe, juste pignons.
Tu sais ici les gens sont… — Débauchée l'Europe ? Ah… - A
votre gauche, la grande mosquée - Hola español ? – admirez
les sols pré aghlabides… mais les gens ici
sont… Mais vous n'allez pas dérouler tous les tapis du magasin ! Oh vous savez on
fait ça toute la journée. — Non je ne fais pas le ramadan. Cinq. Les gens
sont décidément…Tu es français ? Mais c'est fait avec uniquement de
l'huile et du
sucre, c'est donc assez
gras.

Bâb Jedid, la porte neuve, là où tu as fini par t'y faire, au peuple mal rasé, las, dans d'interminables perspectives de chaussures, de bâches, et de choses, et, en fin d'après-midi, dans l'or roux des pains. C'est devenu ton quartier.

Vous allez les mains dans les poches avec la tranquillité autochtone. Et voici autour de la médina l'avenue circulaire qui charrie des flots éblouissants de taxis jaunes. À cette heure où l'on baille, c'est une persistance rétinienne pénible. Le soleil qui polit le bitume, qui écrase les ombres enfumées des chauffeurs derrière les vitres blanches opaques. Tout cela, c'est avec la main en visière sur les yeux. L'aigreur de l'aube mécanique, et des véhicules boulonneux, sans les balancements des arabesques coraniques, dont les fils dorés s'agrippent au rétroviseur. Vous vous dites que décrire, ce n'est pas traverser.

Bâb Al Jazira,
ou l'embouteillage par essence, quand tout le monde rentre et sort,
il se coule à la même heure,
en serrant le ventre, entre les carrosseries bien agressives,
dans les vapeurs de jour
d'été, ou dans la nuit fébrile
de l'hiver, ou sous l'orage, à pied d'archipels gris en archipels, lorsqu'il pleut des klaxons, lorsque les caniveaux en crue ne sont vraiment plus guéables.

Je suis très à l'aise dans le cadre de mon lit, et je dors en alternance d'un côté et de l'autre, lové dans les replis propres, doux. Mon lit est hors les murs.

Romain Loriol est né à Agen en 1985. Élève de l'Ecole normale supérieure lettres et sciences humaines de Lyon en lettres classiques où il prépare un mastère sur Ammien Marcellin, il a passé trois mois en stage auprès de l'Institut français de coopération de Tunis. Dans les textes que nous vous proposons, il a voulu transcrire par petites touches les ombres blanches et bleues de la médina, ses chemins de traverse et les émotions qui l'habitent.

Médina

La première à gauche. Cinquante mètres de murs délavés de bleu indigo, et à droite. Il n'a pas l'habitude. Il est plongé dans le plan. À trois portes, trois chats, blanc, noir, blanc. Il se doute bien qu'il va déboucher quelque part. Il marche vite, sans s'appesantir sur le jus grumeleux des ruelles qui glissent devant lui. Il a sa main sur le guide pâle, ses doigts cachent des places et des marchés et des gens qui balaient devant leur porte après la nuit d'ordures. Il lit un peu et pressé les caractères de droite à gauche jusqu'à l'impasse. Arrière à grands pas que scandent les portes ! Il veut ne plus bifurquer, droit, même s'il faut en brasser les étoles rouges et s'excuser de ne pas caboter d'échoppe à échoppe. Sa paume sur la carte couvre le souk qu'il traverse à tâtons. Son autre main sur son sac. Ça tourne. Et aux oreilles, il y a les pulsations grésillantes des basses, le rythme radio dans les boutons des jeans bleu délavé indigo, dans le flot branché des tissus, parce qu'il est bien marqué rue des teinturiers. Ça ne fait que tourner. La main, gauche, sur l'épaule d'un type pour l'écarter, et enlever le toit qui étouffe. Il redécouvre le ciel blanc du matin. Droite — gauche — droite. À l'estomac, de nouveau, dans les cadences de sa course, il a des élancements de minarets, et des petits gosses en bleu sombre uniforme devant l'école. Maintenant il respire à peine sur la place qui est plongée dans la tranche du guide. Mais déjà la hâte vers d'autres carrefours. Il en a marre de s'insinuer, des intrigues de ruelles qui filent. Alors il se chante la marche contre la malchance, ou les jambes contre la tête. Ça tourne. Il prononce presque ses pas. Et puis c'est enfin la ceinture des grandes portes de la vieille ville qui s'ouvre. Il en sort. Il peut bien, maintenant, se ronger les ongles sans qu'on croie qu'il est perdu. Il méprise le guide inutile, il ralentit.

À votre droite
cette architecture typique — Oh,
ah, oh — Pas cher ! — C'est vrai que
c'est pas cher — Vous êtes français, je suis
étudiant aussi, je connais le France, Paris ? Non, …
Visa ou
pas visa — Bienvenue. Nous avons
quatre siècles de retard sur vous ! - vingt dinars - Il paraît qu'on dénonce
les couples non mariés dans les hôtels. - Un thé à la menthe
s'il te plaît — Et le refus du cochon c'est un
impératif catégorique ? Bonsoir – bonsoir - Le patrimoine

Fiction - Écriture - Peinture

recueil -ferait écho aux précédents, de même qu'y palpitent déjà les poèmes à naître ». [11]
Entre les textes se crée ainsi une continuation qui se vérifie au niveau typographique par continuation l'absence de majuscules et de ponctuation dans l'écriture. La mise en page du poème laisse par ailleurs une place au blanc. Pour Amina Saïd, il est la matérialisation du non-dit du texte, de sa marge de silence qui n'est pas ici synonyme d'une non-parole, mais se conçoit plutôt comme l'expression d'une parole autre et différente. La tension entre la rétention du silence et la protention de la parole donne à lire la mouvance de l'être partagé entre l'élan et la méditation, entre le bloc et le vide. Le poème s'énonce ainsi entre le souffle qui porte et le silence qui retient.

Si, comme l'écrit Dominique Combe, le « problème des littératures francophones, c'est d'être écrites en français[12] », il nous semble qu'une œuvre comme celle d'Amina Saïd est un exemple vivant de la capacité d'une œuvre « francophone » à dépasser ces clivages linguistiques et culturels.
A travers la richesse de ses problématiques et l'ouverture des ses horizons, il nous semble que son travail est un questionnement ouvert qui interpelle le lecteur quelle que soit son appartenance et son origine. Si l'écrivain qui adopte la langue de l'autre « est confronté avec le négatif, dont il assume le risque : la perte, la destruction, la folie, la mort »[13], nous voyons aussi quels avantages cet exil, au sens étymologique d'une « *sortie de soi* », peut présenter en favorisant l'émergence de l'être dans la confrontation entre l'ici et son autre.

Moatamri Inès
(Université François Rabelais, Tours, France)

Principales œuvres de la poétesse :

*a) Recueils de poèmes_*

Paysages, nuit friable, Vitry : Inéditions Barbare, 1980, 94 p.
Métamorphose de l'île et de la vague, Paris : Arcantère, 1985, 127 p.
Sables funambules, Paris : Arcantère ; Trois-Rivières : Ecrits des Forges, 1988, 117 p.
Feu d'oiseaux, Marseille : Revue Sud, 1989, 45 p.
Nul Autre Lieu, Trois-Rivières : Ecrits des Forges, 1992, 93 p.
L'Une et l'Autre Nuit, Chaillé-sous-les-Ormeaux : Le Dé bleu, 1993, 125 p.
Marcher sur la terre, Paris : Editions de la Différence, 1994, 107 p.
Gisements de lumière, Paris : Editions de la Différence, 1998, 119 p.
De Décembre à la mer, Paris : Editions de la Différence, 2001, 109 p.
La Douleur des seuils, Paris : Editions de la Différence, 2002, 125 p.
Au Présent du monde, Paris : Editions de la Différence, 2006, 95 p.

b) Fables et recueils en prose

Le Secret et autres histoires, Paris : Criterion, 1994, 177 p.
Demi-coq et compagnie : fables de Tunisie, illustrations : Ahmed Ben Dhiab, Paris : L'Harmattan, 1997, 77 p, coll. « La Légende Des Mondes ».

c) Traduction

Chants tatoués d'Ahmed Ben Dhiab, Rotterdam : Editions Hiwar, 1987.
Le Dieu volé : choix de nouvelles de Francisco Sionil José / traduit de l'anglais, Paris : Criterion, Unesco, 1996.
Viajero : le chant de l'errant, roman de Francisco Sionil José, traduit de l'anglais, Paris : Criterion, 1997.
Po-on, roman de Francisco Sionil José, Paris : Fayard, 2001.
A l'ombre du balete, roman de Francisco Sionil José, Paris : Fayard, 2002.

qu'il n'y a de vérité que provisoire. Les êtres aussi bien que les choses ; l'espace aussi bien que le temps sont en constantes métamorphoses. Le « rais » de l'entre-deux conduit une voie, indexe un chemin vers l'accomplissement de soi. Il introduit un moment de passage et de transition entre l'incertitude du « entre » et la présence du « deux ».

La Relation

L'expression de la subjectivité ne signifie pas l'enfermement du texte sur lui-même. La réflexion sur soi n'est pas, chez Amina Saïd, exclusive de la relation à autrui ni de l'ouverture au monde. L'horizon intérieur du poème appelle en effet son « horizon » extérieur comme ce qui le complète et lui donne sens. Ainsi, l'ouverture au « tu », au « nous » est constamment postulée qui définit la relation à l'autre comme un lien non seulement complémentaire mais également essentiel à l'accomplissement de soi.

L'autre, postulé dans la distance d'un « *tu* » ou dans la fusion d'un « *nous* » est appelé, convoqué dans sa présence aussi bien que dans son absence. Cette éthique de la relation est aussi ce qui définit le sujet dans son être au monde. L'ouverture à l'espace, à la nature, aux lieux, aux paysages est ce qui définit la conscience comme « *conscience de* ». La visée intentionnelle du texte est sans cesse recherchée qui tend à faire du poème un espace d'attractivité des trois référents anthropologiques : *logos*, *anthropos*, *cosmos*. Pour Amina Saïd : « Le spectacle du monde ranime en nous ce sentiment que nous ne sommes qu'humains, et donc le désir d'accéder à notre être véritable et entier. Le premier pas vers cet accomplissement - la capacité d'être - est peut-être dans cette attention constante accordée à l'autre, dans l'amour, dans l'amitié, mais aussi à celle accordée à la terre où nous vivons [...]. Il existe une solidarité instinctive entre nature et création. »[8].

Poétique

Amina Saïd écrit ses poèmes en vers libre, ce qui semble être la forme la plus naturelle et la mieux appropriée à sa sensibilité. Le découpage en vers permet une meilleure visibilité du texte, et partant, favorise une meilleure visibilité du « cosmos intérieur ».

D'autre part, cette poétisation qui dépasse les contraintes prosodiques s'adapte davantage à une exigence d'affranchissement des limites et à un meilleur élan du rêve et de l'imagination dans le poème. Amina Saïd a écrit également des poèmes en prose, notamment dans les derniers textes de *Paysages, nuit friable*[9]. L'effet prose permet d'explorer plus librement encore son univers intérieur, en y éprouvant, à même l'espace du texte, l'alchimie des métamorphoses et de leurs interactions. Il paraît plus propice à une introspection interrogative qui met en forme une articulation dialogique de l'énonciation.[10]

D'un point de vue stylistique, l'écriture d'Amina Saïd procède par une économie des effets. Rares sont les mots difficiles, les tournures rhétoriques superflues ou les images recherchées. Ce qui donne à ses textes cet effet de transparence caractéristique de son style, et qui est pour la poétesse l'expression de la transparence de « l'âme ». Malgré cette familiarité apparente, les poèmes de Saïd ne sont pas dépourvus d'énigme. Un aspect d'étrangeté se dégage de la lecture de ses poèmes et s'entretient du rejaillissement du rêve, y compris les rêves les moins « heureux », dans son écriture.

L'absence de titres dans les poèmes est une constante qui tend à briser les frontières entre les poèmes, et d'un recueil à un autre, appelle à dégager des échos et des résonances entre les œuvres : « Je ne pressens pas le besoin de donner un titre à mes poèmes. [...]. Ainsi, chaque poème serait un fragment qui appartient à un ensemble, chaque poème- et chaque

Amina Saïd
(1953 -...)

Deux rives

Amina Saïd est née en 1953 en Tunisie. De père tunisien et de mère française, Amina Saïd porte dès la naissance, une appartenance « double », partagée entre les deux rives de la méditerranée. Les voyages entre la France et la Tunisie sont le signe d'un dépaysement constant où l'identité s'acquiert dans le face-à- face entre les deux pays et les deux cultures. : « Je suis née à Tunis, trois ans avant l'indépendance, d'un père tunisien et d'une mère venue du sud-est de la France. [...], le va-et-vient entre les deux pays, entre les deux langues, a commencé très tôt ».[2]

Après des études primaires et secondaires Amina Saïd part étudier la littérature anglaise à Paris. A la fin des années soixante dix, un nouveau départ s'ensuit pour la Tunisie où la poétesse enseigne pendant deux ans la littérature anglaise à l'université tunisienne. Retour éphémère que relaie, à nouveau, un nouveau départ pour Paris où Amina Saïd vit et travaille depuis comme journaliste. Outre son œuvre de poétesse, Amina Saïd s'attelle, depuis quelques années déjà, à traduire de l'anglais l'œuvre de l'écrivain philippin Francisco Sionil José, dont les derniers tomes de traduction sont déjà disponibles aux éditions Fayard à Paris. Ce parcours richement travaillé de dualités et de tensions, aura des résonances perceptibles dans son œuvre, dont le lyrisme, l'entre-deux, la relation, nous semblent les caractéristiques les plus saillantes.

Lyrisme

Pour Dominique Combe « La plupart des écrivains maghrébins, même les poètes, refusent le lyrisme, soit qu'ils préfèrent le « degré zéro » d'une écriture délibérément prosaïque, dissipant les mirages de l'image, soit qu'ils défigurent la beauté formelle par la « barbarie » ».[3] Pour Amina Saïd, le lyrisme est au contraire une voie naturelle qui convient parfaitement à l'expression particulière de sa sensibilité et à l'évolution de son écriture.

Le lyrisme apparaît comme la focalisation du poème sur l'« horizon intérieur » d'une subjectivité qui s'énonce dans ses multiples facettes. L'écriture devient en cela un recours « thérapeutique » où l'extériorisation scripturale est une lutte contre ce qui menace d'« aphasie » l'être et la conscience.

Le thérapeutique devient à son tour cathartique dans la mesure où le lecteur, cet « éternel » complice, se reconnaît dans le miroir que lui tend le poète. La connaissance de soi comme un autre tourne ici les termes de la relation et interpelle l'autre afin de se reconnaître comme un double de « Soi ». L'*Idem* conduit ici à l'*Ipse*. Quand Amina Saïd écrit à la première personne ses textes, c'est le « nous » qu'elle vise. En cela, l'expression de ce lyrisme ne se confond pas avec le soliloque emphatique, voire pathétique, mais nous semble l'expression d'un échange de part et d'autres les frontières du texte.

Entre-deux

L'intervalle de l'entre-deux transparaît d'emblée dans nombre de titres des recueils d'Amina Saïd qui indexent le sens d'une pluralité, d'une tension, d'un retour suivi de détours entre le même et son autre. Parmi ces titres, nous pouvons citer : *Métamorphoses de l'île et de la vague*[4] , *Sables Funambules*[5], *l'Une et l'Autre Nuit*[6], *Douleurs des Seuils*[7].

L'entre-deux est le signe des dualités qui partagent son univers imaginaire et le signe

Silhouettes

Mongi Ghodbane, né à la fin de l'année 1956 à Ras Jebel (Gouvernorat de Bizerte), diplômé de l'École Normale Supérieure de Tunis en 1980, spécialité Lettres françaises, et actuellement inspecteur des collèges et lycées dans la région de Tunis, auteur de deux recueils de poésie non publiés jusques-là : *Et l'errance continue…* (en langue française) et « *Taratiloulmada* ترتيل المد (en langue arabe).

Les yeux de la Joconde

Les yeux de la Joconde
Partout où je vais
M'accompagnent pas à pas…
A la ronde
Les yeux de la Joconde
Partout où je vais
Me surveillent
M'appellent
M'interpellent
Je souris…
Elle gronde
De dépit je ne me plie
Je contemple la mer
Je la vois qui rougit
Je respire un coup d'air
Et du fin fond des ondes
Elle rejaillit
M'épie
Me lorgne
M'inonde
Je m'éclipse
Je m'assoupis
Je sombre dans l'absence
Et les voilà dans mon rêve
Qui m'attendent
Les yeux de la Joconde
Et avancent et avancent
Je m'emporte
Ils me quittent
Je les évite
Ils m'invitent
Nous sommes quitte

Ils m'emmènent sur leurs ailes
Salut rivages
Ombres si belles
Moi je m'en vais
Pour un long voyage
Je mords la vie
J'étreins le ciel

Et les voilà
Les yeux de la Joconde
Qui dansent dansent
Autour de moi
Sacrée romance
A la ronde
A la ronde.

Mongi Ghodbane

Irruption d'un regard assoiffé.

Mes sensations me ponctuent
Comme le fait l'horloge
En me quittant
Sans traces
Elle(s) regan(ent) mes regards assoiffés dans l'air
Elle modalise des gestes
Faisant irruption chez un mort
Qui s'agonise deux fois
Et répète une phrase
Dont les sensations marquent une distance
Et coulent mi-voilées
Sur les dunes d'ombre au paradis
Tout se brise sans éclat
Le brouillard filtre mes joues
Me fait sourire timidement
Sans repères
Comme le fait l'écho
En me dévoilant
Fou(s).

Isthme.

L'angle change ses ondes avancées
Et la brèche devient sonore
Le coucher de soleil alimente ma haine
Et me transfigure à sa guise
Mes yeux me déshabillent
Je porte mes habits cent fois
Je me sens Nu davantage
Mes choix et mon chemin
Nus aussi
Me visent et me désirent
Mes regards leur échappent
Mais le corps plonge dans leur nudité
Elle m'étrangle et fête
Dans leurs regards s'avèrent
Les vérités de tous les mondes
Qui se cachent derrière mes yeux.

AYDI Bessem.

Bessem AYDI
17-02-1986
Etudiant de l'école normale de Tunis

Séraphin.

Je t'enlace contre moi, je soupire.
Embrasé par tes parfums exhalés,
Je me pâme d'amour. Ô ! Quel délire !
Vais-je sourdre, mourir ou oublier ?
La robe blanche épouse ton corps.
Et mi-close, ta bouche vermeille :
Sauve moi de ce silence sonore ;
Reste ! Tu disparais en un clin d'œil.
Ange, l'ambre me chatouille le cœur ;
Approche encore, orne moi l'âme,
Condamne moi, Sylphide. Ô ! Je meurs.
Tu sais, tes tendres prunelles m'enflamment.
Tendrement, cèle moi dans tes écrins,
Entre les traits de l'ineffable amour.
Empêche ma ruine entre tes mains,
Doucement, entre ces yeux de velours.
Ô ! Quelle danse voluptueuse !
Dis-moi que tu m'aimes mon séraphin.
Je frissonne devant ta peau soyeuse.
Tiré, je vais rêver entre tes mains.

ClEpsYDre De Mots Nus.

Je sens mon âme se confiner au fond du –Tien-.
Près de mes doigts,
J'essaie de suivre tes soupirs,
De l'est à l'est,
De haut en bas :
Ils exhalent l'odeur du jasmin,
Me rappellent un charme désuet.
Tes yeux succincts résorbent
Cette buée parée avec ma solitude ;
Tes mots,
Plus fins que mon corps inciméré,
S'étalent sur tes lèvres.
J'adore cette peau liliale
Qui t'orne l'âme
Purifiée avec cette allégresse
Si subtile qu'un rayon de crépuscule,
Si subtile que le clair-obscur,
Venant du –Mien-.

Médée

Elle avance dans les rues
La nausée l'accompagne
Lui ouvre les embruns des exils

Médée court yeux bandés sur l'arête des toits
Médée va nus pieds sur les tessons des remparts

Elle n'a plus d'yeux
Sa bouche est sans appel
De sa bave elle enduit la tunique
Des noces
Va semant ses œufs amers
Dans les lits adultères
Son rire emplit
Rivale
Ta nuit du venin des scorpions
Son rire t'empale tous les matins
Sur les grilles du jardin de roses rouges
Médée inconsolée
Ne reconnaît plus tes enfants
Et l'alcôve a son odeur de sexe saccagé

Elle avance
Dans les rues
Des bêtes saignées l'accompagnent
Lui ouvrent les villes
Coffrées de désir et d'effroi
Médée va nu pieds sur ta puanteur
De chien écrasé
Et où loger le parfum violent
De ta trahison ?
Et quel amour nouveau surgira
De ce faux jardin
De roses rouges ?

POLLEN

Ta langue,
Pollen noir de l'inceste
Pollen noir
Il fait si sombre
Ici
Sous ta langue
J'efface les ombres
Entre ces mots
Je cherche entre
Deux lèvres
Les choses qui restent
Je cherche l'amour
Qui reste
Après l'amour

Maha Ben Abdeladhim est doctorante à l'Université de Paris IV Sorbonne et donne des cours de rhétorique et stylistique à la même université. Après avoir travaillé sur les questions de l'errance et sur les *Gender*, ses recherches portent aujourd'hui essentiellement sur la poésie française de l'extrême contemporain. Elle a publié poèmes et articles scientifiques, surtout à l'étranger, dans différents recueils et revues.

L'envers, du poème

du poème, sa mâchoire déprise que tes doigts blessent

-en voulant fermer-

du poème, ses yeux cousus

son corps éperdu de poème

des étourneaux aveugles se cognent à l'été qui vient –

son sexe transparent

le tissu insondable

le très léger

déchirement du nocturne.

Le poème, ses taches claires

effondrement de la parole au sillage de sa langue –

nuit, nuit noire et ses fleurs albinos

du poème, son vol de chenilles

le vertige de sa bouche

salive blanche au dos du poème –

Vu de près

VOLONTAIREMENT

CE QUE SERAIT LA TRANSPOSITION DE CE JEU DE REFLEXIVITE QU'OPERE LA NUIT ET SA LUMINOSITE SUR LES ESSENCES DE TOUTE PERCEPTION – ET DE TOUTE SENSIBILITE – SUR UNE DE CES MULTIPLES CANDEURS.

La tendresse de l'âme vient de cet état du corps, second. Connaissance et trémulation naissent du contact de la brise nocturne. Une nuit – Le bleu est à même l'azur qui survole le tintement lumineux. Cette musique… Savoir ce que c'est qu'une valse en un infini temps, offerte à vos yeux par l'abîme qui se creuse chaque soir sur la mer. Apporter un peu de sa propre chaleur – sinon de sa *fièvre* – à ce feu éteint, à ce voile baissé à demi. Jouir enfin en serrant le monde entre ses mains.

Mais, avant de s'endormir, cette peur instinctive…

Vu de loin

Détournement en plein dans la nuit à travers ce trou noir et béant que je pénètre, assis dans mon fauteuil.
L'être et ses pensées se déversent, tel un météore mental.
Cela sert-il à une chose sinon à entretenir l'image nocturne du vide captivant ?
Nuit du désert.
Huis clos de la nuit. Percevoir cette apocalypse solaire pour la pénultième fois.
Contempler comme une âme de la nuit l'âme nocturne.
Bouquets de lunes pour celle qui, seule, inspire l'insomnie.
Sommeil tyran transgressé.
A quoi s'en tenir pour se lancer contre
la barricade réflexive d'une pensée en éveil ?
Chant et douleur de la création perfective au début infinitésimal de la pénétration.

Sous nos
pensées latentes
des lies.
Aube de la nuit magistrale.

Khalil Oueslati

Khalil Oueslati
Né le 17 juin 1983 à Tunis, il a obtenu en 2006 une maîtrise en langue et littérature françaises à la Faculté des Lettres, des Arts et des Humanités de Manouba, et se présente au Concours d'Agrégation de français de mai 2007.

Clair-obscur

Gouffre de la nuit et force de la braise. Recueillir la béance nocturne par avidité de fuite. Se muer en fumée. Un spectre m'anime, éclaire le bleu devenu noir par trop d'insomnie. Cantique en haillons par la persévérance des plaies. Broyer la semence noire. Voir naître comme une amertume – suspendue à une angoisse primitive – sur le bord céleste et scintillant d'un ailleurs fertile. Caresser un bout de son étoile, au bord de ce trou noir qui en consume la pointe. Effluve bleu, bleui par le même vœu, inlassable, ne plus être là. Chevaucher la nuit embrasée. Insomnie crépusculaire et crépuscule de l'éveil par la main tendue du jour. Ardente destinée.

Nuit naufrage de l'âme. Sacrilège.

Une substance cristalline émane des cendres de la nuit, une fois que l'aube transparaît. Obscurci, le feu devient limpide et comme du verre.

Totem

Des soldats jouent aux dès.
La croix, antique mais bien portante, gît encore au sommet de la dune.
Rôdeurs de nuit.
Insomnie par libations.
Il dort en croix.
La canne a ressuscité par le maléfique pouvoir du Désert.
Bribes de religions.
La dune surmonte le village irlandais. Grottes et galets.
Danse autour du Verbe premier.
Le flot du vin destructeur. Opium et mirage de l'homme qui m'aime.
La fin jubile mais il est encore en retard. Vanité du fruit et colère du vendangeur.
Restes de chair maudite. Les dieux sont emprisonnés
dans des verbes
gravitant à l'intérieur des têtes conquérantes.
Le verbe mitraille le totem

in fine.

Poésie

Le Renard et le Coq

Maître parut un jour
Affublé en respectable prédicateur
Il se meut avec dignité, en marmonnant,
Insultant les traîtres et les félons,
Disant : « Louange à Dieu
Souverain de l'Univers »
O nobles créatures, revenez à Dieu
Il est l'unique refuge pour vous repentir
Et afin de vivre en véritables ascètes
Faites surtout abstinence des gallinacés
Qu'à l'avenir, l'appel à la prière
Du matin soit confié aux bons soins
De notre ami, le coq
Aussitôt un messager
Fut envoyé chez le coq
Et lui présenta cette requête
Certain, de son consentement.
Mais celui-ci, se déroba,
Le traitant de plus étourdi des croyants,
L'invita plutôt à rappeler au renard
Le souvenir de ses honorables ancêtres
Aux crêtes couronnées, dont le sort funeste
De la plupart d'entre eux
Fut de finir dans son ventre maudit

Ainsi, les sages ont dit :
« Se trompe qui à la vertu du renard se fie ».

Le Prince des Poètes : Ahmed CHAWKI
Traduction de Hamadi BELHADJ
Hammam-Lif le 12 /05/2005

Eloge de l'Amour

A la mémoire d'Imène

Ah ! si je savais
Quel oiseau
Pourrait entendre pleurer la tristesse
Au fond des cœurs
Et ne pas soupirer à l'aube
Des airs désespérés
Avec humilité et affliction.

Je ne sais
Quel pouvoir
A fait taire mon oiseau ;
Est-ce que les sens se sont évanouis
Dans tout l'univers
Même dans le souffle ultime des oiseaux ?
Ou bien a-t-il sangloté au-delà des nues ?

Ainsi dans les ténèbres
Que de fois je priais sur sa tombe
Accablé par mes pleurs et mon chagrin ;
Puis tâchant d'écouter l'écho de ma plainte,
Seule, ma voix, me répondait !...

Alors j'appelle
O mon cœur, ton amour n'est plus
Et cette tombe renferme le bien-aimé
Pleure ô cœur autant que ton chagrin est grand
Pleure ô cœur esseulé !

Mon cœur est affligé
Mon amour a disparu
Laisse couler, ô pupille de la nuit
Tes perles sur mon amour
Puisqu'il a fait ses adieux
A l'horizon de la vie
Après avoir été embrasé

Pleure-le
Purifie-le
Avec les larmes de l'aurore
Dans des coupes de fleurs de lis
Enterre-le avec égard
Au bord du crépuscule
Afin qu'il aperçoive
L'âme de l'être aimé. /.

Abou – l- Kacem – Achabbi, *Matam-al-Hub*
Traduction de Hamadi BELHAJ
Hammam-Lif, le 24-04-2005

Traductions

Edito:

L'art est long ...

Un sage tunisien, qui excelle et dans la langue de Shakespeare et dans la langue de Voltaire, dit un jour à un jeune enthousiaste, qui s'énervait de voir que plus d'une belle idée et plus d'une entreprise généreuse avortaient dans les milieux de la recherche et de la création en Tunisie, par impatience et parfois par maladresse, que *les Anglais avait mis mille ans à maîtriser la technique du gazon.*

L'art est long, tout art qui n'est pas une simple vue de l'esprit ou une fantaisie éphémère. Et c'est un art que de faire exister une publication périodique, paraissant à des dates prévues et respectées, attendue par des lecteurs fidèles qui la soutiennent par leurs critiques comme par leur adhésion, et surtout portée par une vision réaliste mais ambitieuse du rôle de l'intelligence et de la création dans notre pays.

Le supplément d'expression française d'Al – Massar, qui en est avec ce numéro à sa cinquième parution, fort du soutien amical de la rédaction de la revue, n'est encore qu'au tout début de ce long cheminement qui conduit à l'art consommé.

Il nous reste encore à ouvrir cet espace à un plus grand nombre de jeunes créateurs tunisiens pour qu'ils puissent donner toute la mesure de leur talent, de leur originalité et de leur authenticité.

Il nous reste aussi à convaincre les créateurs tunisiens confirmés de soutenir cette entreprise en publiant avec nos jeunes talents et en montrant que la création, tout en étant un acte farouchement individuel, ne se conçoit pas sans une claire appartenance au groupe, quel que soit la dimension de celui-ci.

Il nous reste enfin à doter et le supplément et la revue des outils pratiques et efficaces de diffusion et de répercussion des ambitions qui les nourrissent et qui les portent.

Pour aider la rédaction à mieux utiliser les contributions adressées au périodique, nous prions les auteurs de joindre à leurs textes leur adresse électronique et leur numéro de téléphone, accompagnés d'un court *c.v.*, et si possible, de les faire parvenir sous forme de document attaché, à cette adresse électronique :
Bonne lecture.

almalaf07@gmail.com

Sommaire

AL - MASSAR

Revue de l'Union des Ecrivains Tunisiens

ALMALAF N°6

Supplément en langue française
édité par Mohamed Kameleddine GAHA

N°79

Septembre / Octobre 2007